صفحة من تاريخ الإسلام فى روسيا

الإسلام والمسلمون فى حوض الفولجا

" جذوره التاريخيه وواقعه المعاصر "

تاليف

أ.د. ليلى عبد الجواد إسماعيل

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار الثقافة العربية

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

صفحة من تاريخ الإسلام في روسيا

الإسلام والمسلمون في حوض الفولجا

" جذوره التاريخية وواقعه المعاصر "

تأليف

أ.د. ليلى عبدالجواد إسماعيل

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

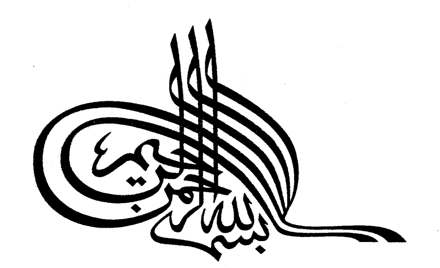
دار الثقافة العربية
١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

رقم الإيداع

٢٠٠٥/١٧٣٩٧

الترقيم الدولى I.S.B.N

977 - 222 - 290 - 6


بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويات

مُقَدِّمَة

التعريف بمنطقة حوض الفولجا وشعوبها

الإسلام دين عالمي بمعنى الكلمة، أي أنه ليس مقصورًا على جنس دون جنس، ولا على شعب دون شعب، ولا على أمة دون أخرى، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾[1]، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[2].

تقرر هذه الآيات عالمية الإسلام، وأنه لكل البشر، وسائر الأجناس، لذلك لا عجب أن نسمع ونقرأ عن انتشار الإسلام في منطقة حوض نهر الفولجا، أي في جنوبي روسيا، فقد هرع الناس في كل زمان ومكان إلى اعتناق الإسلام لسهولته ويسره، وبساطة تعاليمه، وسمو مبادئه.

إن دراسة موضوع الإسلام والمسلمون في منطقة حوض الفولجا، تلقي الضوء على جوانب متعددة من تاريخ الإسلام السياسي والحضاري، فضلاً عن أنها توضح صفحات من تاريخ السهوب الروسية، وشمال غربي بحر قزوين بل وبلاد القوقاز فضلاً عن شرق أوربا.

نهر الفولجا من أعظم السهوب الروسية، وهو نهر طويل يقع في الشمال الغربي من بحر قزوين، وينساب مسافة يبلغ طولها ٣٦٩٤كم، ومن أهم روافده

---

(١) سورة سبأ، آية ٢٨.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٥٨.

أوكا الأيمين، وأوكا الأيسر، وقد اطلقت عليه المصادر العربية اسم " اتل "، " أتل"، " اتيل "[١].

وأتل بفتح الألف أو بكسرها، هي كلمة تعني (النهر) في لغة الترك، وتعني (الأب) في لغة القوط[٢].

وتحدثت المصادر العربية عن طول هذا النهر وروافده، فوصفه الدمشقي قائلاً : " أنه نهر كبير، غزير الماء، سريع الجرية "[٣]، أما ياقوت فذكر : " نهر أتل لاشك في عظم طوله "[٤]، وذكر في موضع آخر : " انه يتشعب من نهر أتل نيف وسبعون نهرًا، ويبقى عمود النهر يجري إلى بحر الخزر (أي قزوين) "[٥]، وحدد ابن الوردي روافد هذا النهر تحديدًا أدق فذكر : " أنه يتشعب من هذا النهر خمس وسبعون شعبة، كل شعبة منها نهر عظيم، وعموده لا يتغير، ولا ينقص ذرة لغزارة مائه، وقوة امتداده "[٦].

أما الرحالة أبو حامد الأندلسي الغرناطي فذكر في حديثه عن " أتل " أي نهر

---

(١) انظر : ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٣٠، ٣٣٢؛ ابن فضلان، رسالته في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس، تحقيق سامي الدهان، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٣٦، هامش ٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٨٧، ٨٨.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٥٥١، حاشية ١؛ وانظر أيضًا : محمد عبدالشافي، "مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في القرنين السابع والثامن للميلاد"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أسيوط، ١٩٩١م، ص٤٠، حاشية ٢.

(٣) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٣٨.

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٨٨.

(٥) ياقوت، نفسه.

(٦) ابن الوردي، خريدة العجايب وفريدة الغرايب، مصر، ١٨٥٩م، ص١٢٩-١٣٠.

الفولجا أنه نهر عظيم أكبر من دجلة مرات، أضعاف مضاعفة، كأنه بحر تخرج منه أنهار عظيمة "[١]. ونقل العمري والقلقشندي عن الفاضل شجاع الدين الخوارزمي الترجمان "بأنه (أي أتل) قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر"[٢].

وعن عرض هذا النهر ذكر أبو حامد الأندلسي، ومشيت عرض ذلك النهر لما جمد، فكان عرضه ألفي خطوة وثمانمائة ونيفًا وأربعين خطوة بخطوى، سوى الأنهار التي تخرج من ذلك النهر "[٣].

تحدث الدمشقي عن منبع نهر أتل (الفولجا) ومصبه فذكر : " مخرجه من صحاري القبجق وجبالها ... ومصبه في بحر الخزر "[٤]، أما العمري فيذكر : "ومخرجه من عين تنبع في ذيل جبل قاقونا، ثم يقتبل الجنوب آخذًا في صحاري القبجاق، حتى يصب في بحر طبرستان (أي بحر الخزر) "[٥].

وحدد الإدريسي أسماء الشعوب التي سكنت حوض نهر الفولجا (أتل) تحديدًا دقيقًا إذ يذكر : " نهر أتل جانبه الشرقي .. يجرى ما بين البجناكية وبلغارية، وهو الحد بينهما، وجريته غربًا حتى يصل ظهر بلغار، فيعود راجعًا إلى

---

(١) نقلاً عن حسين مؤنس، الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٣١٤-٣١٥.

(٢) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٩٤-٩٥؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مصور عن طبعة دار الكتب، ج٤، ص٤٦٧.

(٣) نقلاً عن حسين مؤنس، الجغرافيا، ص٣١٦.

(٤) الدمشقي، نخبة الدهر، ص١٣٨.

(٥) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٨٣، وانظر أيضًا : الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٨٣١-٨٣٢؛ القزويني، نزهة القلوب، ص٢٠٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٦٧-٤٦٨.

ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس، ثم على بلغار، ثم على برطاس، ثم على الخزر حتى يقع في بحر الخزر "[١]، كذلك ذكر الإدريسي في موضوع آخر : " آثل .... يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس حتى يقع في أرض الخزر فيصب في البحر "[٢]، هكذا يتضح من عبارات الإدريسي أنه عاشت على ضفاف هذا النهر العظيم نهر أثل (الفولجا) أقوام عدة من بينها الخزر في الجزء الجنوبي من هذا النهر، ثم برطاس في وسطه، فالبلغار المنسوبون إليه أي بلغار الفولجا، وأخيرًا الروس الذين سيطروا على شمال هذا النهر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف وصل الإسلام إلى تلك الشعوب، وكيف دخل المسلمون تلك البقاع ؟ الحقيقة أن الأمر يختلف من شعب إلى آخر، حسب طبيعة كل شعب من هذه الشعوب فضلاً عن موقعه بالنسبة لبلاد المسلمين، لذلك لابد من دراسة كل شعب من الشعوب التي سكنت حوض نهر أتل (الفولجا) على حدى، للتعرف على العوامل التي ساهمت في دخول الإسلام وانتشاره بين تلك الشعوب وكذلك كيفية تغلغل المسلمين إلى تلك البقاع.

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٨٣٤.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٩١٩؛ وانظر أيضًا : ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٠، ٣٣٣؛ ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٨٧-٨٨؛ وعن هذه الشعوب انظر ما يلي.

الفصل الأول

انتشار الإسلام
في بلاد الخزر وبلاد البرطاس

- الإسلام في بلاد الخزر.
- المسلمون في المدن الخزرية.
- انتشار الإسلام في بلاد البرطاس.

انتشار الإسلام في بلاد الخزر وبلاد البرطاس

الإسلام في بلاد الخزر:

عاش الخزر عند مصب نهر اتل (الفولجا) في الجنوب، في مملكة ممتدة الأرجاء، يحميها بحر الخزر (أي بحر قزوين) من الشرق، وجبال القوقاز من الجنوب، وبحر بونطس (أي البحر الأسود) من الغرب، أما عن عاصمتها فكانت مدينة (أتل) وقد سميت باسم نهر أتل أي نهر الفولجا محور هذه الدراسة.

تجمع المصادر البيزنطية والعربية على أن الخزر شعب من أصل تركي، فتذكر المصادر البيزنطية ومنها ثيوفانيس Theophanis ونقفوروس Nicephorus وقيدرونوس Cedrenus أن الخزر أتراك قدموا من الشرق، كما تطلق هذه المصادر على خاقان الخزر لقب "ملك الترك" Turcurum Principen[(١)]. وتذكر المصادر العربية ومنها المسعودي " أن الخزر أمة تركية "، كذلك يذكر الطبري وياقوت وغيرهما : " بلاد الخزر هي بلاد الترك "[(٢)].

---

(1) Theophanis, The Chronicle, English tran. By Harry Turtledove, Pennsylvania, 1982, p. 22; Nicephorus, Breviarium, in C.S.H.B., Bonnae, 1837, pp. 17, 18, 25; Cedrenus, Compendium Historiarum, vol. I, p. 721, In C.S.H.B., Bonnae (1838).

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٣١؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٤، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٥٨-١٥٩، ٣٠٤؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة خزر، ج٢، ص٣٦٧؛ وانظر أيضًا : المرزوي، الصين والهند والترك، نشره مينورسكي، ص٢١. وعن أصل الخزر والمعنى اللغوي للكلمة انظر : دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، بيروت، ١٩٨٧م، ص١٩-٢٠؛ محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص٢٤ وما يليها.

كذلك تذهب المصادر العربية وتتفق معها المصادر الروسية على أن زعـيم الخزر كان يحمل اللقب التركي (قاغان) وهو بالعربية (خاقان)، كمـا أن مراسـم الاحتفالات باعتلاء كل خاقان جديد كانت تتفق مع ما ذكرته الروايات الصينية عن حكام الأتراك في القرن السادس للميلاد(١).

أكد المؤرخون المحدثون كذلك أن الخزر شعب تركي، بل من أكبر الشعوب التركية، وأنهم يشكلون قسمًا من الأتراك الغربيين الذين انحـدروا مـن سـلالة الأيغور أو الـ **Ouigourous** الذين تسميهم المصادر الصينية (كو ـ سا – Ko – Sa)(٢).

هاجر الخزر من منطقة التركستان إلى منطقة القوقاز نتيجة للضغط عليهم من قبل الصين، وخضعوا لزعيم الهون، شأنهم في ذلك شأن المجـريين وقبائـل أخرى، حتى توفى اتيلا زعيم الهون في عام ٤٥٣م، وانهارت إمبراطورية الهون بوفاته، عندئذ تمكن الخزر من محاربة قبائل القوقـاز وإخضـاعها، والسـيطرة عليها.

ولم يقاوم الخزر سوى البلغار، الذين ما لبثوا أن استسلموا فـي النهايـة،

---

(١) انظر : الاصطخري، كتاب مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبدالله، القـاهرة، ١٩٦١م، ص١٣١؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج٤، ص٨٩.

(٢) انظر :

Brehier, Histoire de L'Eglise, Bloud, Gay 1944, p, 96; Stratos, Byzantium in the Seventh Century, vol. I, (602–634), trans., by Marco Ogilvie-Crant, Amsterdan 1968, p. 199.

وانظر أيضًا : كيستلر، القبيلة الثالثة عشر، ترجمة أحمـد نجيـب هاشـم، القـاهرة، ١٩٩١م، ص٢١، ٢٨–٣٠.

وانقسموا فريقين، فريق اتجه نحو الشمال الشرقي وخضع هذا الفريق لسلطان الخزر ٦٧٩م، أما الفريق الثاني فقد اتجه نحو الدانوب، وعرف باسمه بلغار الدانوب ودخل في كنف بيزنطة[١]. ثم اخضع الخزر المجريين[٢] بعد أن أخضعوا البلغار، وسيطروا على كل الشعوب السلافية وغير السلافية، التي تعيش في منطقة السهوب، بين الفولجا والدينير، وفرضوا عليهم إتاوة قدرها قطعة فضية عن كل نصل محراث، وظل المجريون يجبون هذه الإتاوة من الشعوب التي تعيش في منطقة السهوب شمال موطن المجر لحساب الخزر حتى منتصف القرن السابع الميلادي، وذلك حتى قام البشناق (البجناك) بطرد المجريين من المنطقة الواقعة بين الدون والدينير ـ شمال البحر الأسود ـ نحو الغرب، وأقاموا في الموضع المعروف باسمهم اليوم[٣].

امتد نفوذ الخزر كذلك حتى بحر قزوين، الذي أصبح يطلق عليه اسم (بحر الخزر)، وقد تحدث ابن رسته عن اتساع بلاد الخزر وامتدادها فذكر : " وبلاد الخزر بلاد عريضة، يتصل بإحدى جنباتها جبل عظيم[٤] .. ويمتد هذا الجبل على بلاد تفليس "[٥]. وعلى هذا النحو نجح الخزر في تكوين دولة مترامية الأطراف، كما نجحوا في إخضاع جميع شعوب المنطقة. ويشير ابن فضلان إلى سيادة ملك

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر مما يلي، وانظر أيضًا : محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص٤٣-٤٥.

(٢) عن خضوع المجريين لخاقان الخزر انظر :
Laszlo Podor (trans), Histoire de Hongrie, Budapest, 1974, p. 42.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر، ص١٢٠، ١٢٥، ١٢٦.

(٤) يقصد بهذا الجبل جبال القوقاز.

(٥) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٢٩.

الخزر على من جاوره من الأمم فيقول : " ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه، يأخذها طوعًا أو كرها "[١].

امتدت دولة الخزر من القوقاز ناحية الشمال إلى نهر الفولجا (أتل) وبعيدًا إلى مصبات هذا النهر ونهر الدون، ووصل امتدادها أيضًا ناحية الغرب إلى شواطئ الدينير، واستقر الخزر في حوض نهر الفولجا لثلاثة قرون، وأصبحوا يتحكمون في المنطقة، ويجمعون الإتاوات من العديد من الأمم والقبائل التي تعيش في الأقاليم الممتدة بين القوقاز وجبال الأورال ومدينة كييف وسهول أوكرانيا، ويظهر ذلك من خلال المراسلات التي دارت بين الخزر وبلاد الأندلس في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١١-٩٦١م)، ففي إحداهما وصف يوسف ملك الخزر، مملكته وطبيعتها، وتحدث عن القبائل والأقطار التي كانت تدفع له الإتاوات، وذكر يوسف أنه كان يجمعها من سبع وثلاثين أمة، تسع منها كانت تعيش في قلب بلاد الخزر، أما الباقي فكان خارجها[٢].

أما عن دخول الإسلام والمسلمين إلى بلاد الخزر، فمن المعروف أن حركة الفتوحات الإسلامية امتدت إلى منطقة القوقاز، وتطلع المسلمون إلى فتح بلاد الخزر بغية نشر الإسلام فيها، ففي عهد الخليفة عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤-٦٤٤م)، قام القائد المسلم عبدالرحمن بن ربيعة بغزو واحدة من المدن الخزرية الهامة وهي مدينة بلنجر ـ العاصمة الأولى للخزر ـ في عام ٢٢هـ/٦٤٢م. ويروي الطبري[٣] تفاصيل تلك الغزوة فيذكر : " غزا (أي

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١٧١.

(٢) انظر لمزيد من التفاصيل، محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص٤٢ وما يليها.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ص١٥٨.

عبدالرحمن بن ربيعة الباهلي) بلنجر في زمن عمر .. وبلغ خيله في غزاتها البيضاء ـ على بعد مائتي فرسخ من بلنجر "، ويذكر كذلك أنه عاد مظفرًا ومحملاً بالغنائم. ويتضح من رواية الطبري أن عبدالرحمن بن ربيعة تجاوز بلنجر، ووصل إلى البيضاء وهي من المدن الخزرية الهامة كذلك، وتقع خلف باب الأبواب (دربند)، كما يذكر ياقوت في معجمه[1].

لم تكن هذه الغزوة هي الوحيدة التي قام بها عبدالرحمن على بلاد الخزر ومدنهم، بل ظل عبدالرحمن يغزوها بشكل مستمر ومتواصل، يتضح ذلك مما يذكره الطبري إذ يقول : " وغزا غزوات في زمن عثمان "[2]، بمعنى أن غزوات عبدالرحمن لمدن الخزر استمرت طيلة عهد الخليفة عمرن بن الخطاب، بل وفي عهد خليفته عثمان بن عفان (٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م)، ويؤكد الطبري ذلك، فيذكر في حوادث سنة ٣٢هـ/٦٥٢م " أن عبدالرحمن قام بغزوة أخرى على بلنجر في السنة التاسعة من إمارة الخليفة عثمان بن عفان وحاصرها، ونصب عليها المجانيق والعرادات، وظل عبدالرحمن يقاتل الخزر حتى قتل، وانهزم المسلمون "[3].

لم تلبث محاولات المسلمين غزو بلاد الخزر رغبة في نشر الإسلام على أرضها، أن توقفت بسبب الاضطرابات التي شهدتها الدولة الإسلامية على أثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، مما سمح للخزر أن يعيشوا في سلام دام نيف وثلاثين عامًا.

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ص١٥٩.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٤، ص٣٠٤-٣٠٦؛ وانظر أيضًا : ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٣١ وما يليها؛ محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص٩٧-١٠٠.

ولكن سرعان ما عاود المسلمون الحنين إلى فتح بلاد الخزر بغية نشر الإسلام فيها، ففي العصر الأموي قام خلفاء بني أمية بعدة محاولات لفتحها[1]. ومن أشهر هذه المحاولات وأهمها محاولة الخليفة يزيد بن عبدالملك (١٠٢-١٠٦هـ/٧٢٠-٧٢٤م) الذي عين " الجراح بن عبدالله الحكمي " واليًا على أرمينية، وأمده بجيش كثيف، وأمره بغزو بلاد الخزر. ويفصل ابن الأثير لهذه الغزوة التي انتهت بأن حلت الهزيمة بالخزر، واستولى المسلمون على أشهر حصونهم، وأهم مدنهم وهي بلنجر عنوة، وغنموا جميع ما في حصنها[2]. وأعلن حاكم هذا الحصن خضوعه للمسلمين ولحكم الإسلام والشريعة الإسلامية، خاصة بعد أن استدعاه الجراح، ورد عليه أهله وأمواله وحصنه، وجعله عينًا للمسلمين يخبرهم بتحركات الخزر والشعوب القاطنة في تلك المنطقة، وبذلك أمسى حاكم بلنجر تابعًا للمسلمين[3].

ظل حاكم بلنجر مخلصًا للجراح وللمسلمين، فعندما تابع الجراح زحفه على بقية المدن والحصون الخزرية، ووصل إلى أطراف سمندر[4]. كتب إليه حاكم بلنجر يحذره من متابعة الزحف، لأن في انتظاره قوة كبيرة من الخزر، وتراجع الجراح بالفعل، وطلب المساعدات من الخليفة يزيد، ولكن كان الخليفة يزيد قد توفى، وخلفه أخوه هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م) الذي أقره على عمله، وأرسل إليه المساعدات لمحاربة الخزر، فعاود الجراح الزحف على

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص١٠١-١٠٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص١١١-١١٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١١٢؛ وانظر أيضًا : دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٠٠-١٠٤.

(٤) عن مدينة سمندر انظر ما يلي ص٣١-٣٢.

الخزر، وهاجم بعض الحصون فيما وراء بلنجر وفتحها، وجلا عامة أهلها[١]. ولعلهم اتجهوا شمالاً ليعيشوا وسط بلغار الفولجا المسلمين إذ يذكر ابن فضلان في معرض حديثه عن البلغار ما يلي : " ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة آلاف نفس من امرأة ورجل وقد اسلموا كلهم، يعرفون (بالبرنجار) وقد بنوا لهم مسجدًا من خشب يصلون فيه "[٢].

وفي عام ١٠٧هـ/٧٢٥م استدعى الخليفة هشام الجراح، واسند ولاية أرمينية إلى أخيه لأبيه وهو مسلمة بن عبدالملك، وذلك لأهمية بلاد الخزر للمسلمين من ناحية، وليزيد من أمجاد الإسلام في بلاد الخزر من ناحية أخرى، وقد شن مسلمة عدة هجمات على بلاد الخزر خلال أعوام (١٠٨-١١٠هـ/٧٢٦-٧٢٨م) وقاد أخرها بنفسه في عام ١١٠هـ/٧٢٨م، وفيها التقى بخاقان الخزر وجموعه، واقتتلوا ما يقرب من شهر، ثم أصاب الخزر مطر شديد، فهزم الله الخاقان وانصرف على حد تعبير الطبري[٣].

وما لبث الخليفة هشام أن استدعى مسلمة، وأعاد الجراح ثانية لولاية أرمينية في سنة ١١١هـ/٧٢٩م، فهاجم الجراح الخزر في نفس العام، من ناحية تفليس، وتمكن من هزيمة الخزر، وفتح مدينتهم البيضاء، وعاد سالمًا[٤]. غير أن المسلمين ما لبثوا أن تعرضوا لهزيمة كبيرة على أيدي الخزر في العام التالي

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ج٧، ص١٤-١٥، ٢١-٢٥؛ وانظر أيضًا : دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) انظر ابن فضلان، الرسالة، ص١٣٥.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ج٧، ص٥٤.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل، ج٧، ص٦٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٥، ص١٥٨.

١١٢هـ/٧٣٠م، وقتل الجراح الحكمي، ووقعت زوجته وأولاده في أسر الخـزر، واسترد الخزر مدنهم من أيدي المسلمين، بل وتوغلوا في الأراضي الإسـلامية، مما دفع الخليفة هشام إلى إرسال مسلمة إلى أرمينية ثانية، وأرسل مسلمة بدوره سعيد بن عمرو الحرشي لمواجهة الخزر، وكانت له جولات معهم، فصل لها ابـن الأثير، وحقق فيها سعيد الحرشي انتصارات إسلامية جديدة على الخزر، وأجبرهم على الفرار مخلفين وراءهم ما لا يحصى عدده من القتلى، مع كميات كبيرة مـن الغنائم[١].

توغل مسلمة بعد ذلك بنفسه (١١٣هـ/٧٣١م) داخل بلاد الخزر، ودخـل بلنجر وسمندر، واستسلما هذان الحصنان له، ثم تراجع إلى مدينة الباب (دربندا) حيث احتشد الخزر، وتمكن من أن يحقق انتصارات عليهم، وقتل ابـن خاقـانهم، ودخل المدينة بقواته، وأعاد تحصينها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى الشام[٢].

أسفرت حملة مسلمة على بلاد الخزر عن دخول أعداد منهم في الإسلام، إذ يذكر ابن الأعثم الكوفي : "وقد دله (أي دل مسلمة) رجل منهم على خاقان الخزر في ميدان المعركة، وأقبل هذا الرجل إلى مسلمة طالبًا الأمان، راغبًا في الإسلام، وبفضله تمكن المسلمون من هزيمة خاقان الخزر "[٣]. كذلك يـذكر أبـو حامـد

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر : ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٥٩-١٦٢؛ دنلوب، تاريخ يهـود الخزر، ص١٠٩-١١٥؛ محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص١٠٩-١١١.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : الطبري، تاريخ الرسل، ج٧، ص٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٧٣-١٧٤؛ ابن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج٨، ص٦٥ وما يليها؛ دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١١٨-١٢٢.

(٣) ابن الأعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج٨، ص٦٥.

الأندلسي عند حديثه عن مدينة دربندا (باب الأبواب) " .. أنهم مسلمون أسلموا في زمن مسلمة بن عبدالملك، لما بعثه هشام بن عبدالملك حين ولي الخلافة، ففتح باب الأبواب، فأسلمت على يده أمم كثيرة منهم أيضًا .. وأسكن في دربندا أربعة وعشرين ألف بيت من العرب من الموصل ودمشق وحمص وتدمر وحلب وسائر بلاد الشام والجزيرة "[١]. ولا شك في أن هؤلاء العرب لعبوا دورًا كبيرًا في نشر الإسلام في المنطقة.

وفي أواخر عام ١١٤هـ/٧٣٢م تولى مروان بن محمد ـ الذي تولى الخلافة فيما بعد ـ ولاية أرمينية وأذربيجان من قبل الخليفة هشام، وذلك بعد عودة مسلمة إلى الشام، فقام مروان بن محمد بشن عدة هجمات على بلاد الخزر، أسفرت عن انتشار الإسلام فيها، وفي هجمته الأولى على بلاد الخزر توغل فيها، وأخربها، وغنم وسبى، وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم، وانتقم منهم على حد تعبير ابن الأثير[٢]. وفي الهجمة الثانية، توغل بعمق في بلاد الخزر، مما جعل الخاقان يخشاه، ويجمع مستشاريه، ويطلب منهم إبداء الرأي وإعطاء النصيحة، فعرضوا عليه الانسحاب من العاصمة شمالاً نحو جبال أورال، ووصل مسلمة إلى البيضاء ـ التي أمست عاصمة للخزر ـ ولكنه لم يحاول حصارها، وزحف نحو الشمال على طول الضفة اليمنى لنهر الفولجا (أتل)، وقد عبر ابن الأثير[٣] عن

(١) أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، نشره جابريل فيران، باريس، ١٩٢٥م، ص٨٢-٨٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص١٧٧-١٧٨؛ لمزيد من التفاصيل انظر : البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٤٣؛ وانظر أيضًا : دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٢٢-١٢٤.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص٢١٥؛ وانظر أيضًا : رواية ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ص٧١-٧٣.

ذلك بقوله : " وفيها أي سنة ١١٤هـ، غزا مروان بن محمد أرمينية، فدخل بلاد اللان، وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخزر، فمر ببلنجر وسمندر، وانتهى إلى البيضاء، التي يكون فيها الخاقان، فهرب الخاقان منها ".

ويذكر البلاذري أن الخاقان ما أن علم بالانتصارات التي حققها مروان بن محمد، وكثرة ما وطئ به بلاده من الرجال، وما هم عليه من عدتهم وقوتهم، نخب قلبه وملأ رعبًا، وأرسل في طلب الصلح(١)، فعرض عليه مروان أحد الخيارين، وهما : الإسلام أو السيف، فطلب رسول الخاقان مهلة ثلاثة أيام حتى يعود بالجواب النهائي، ومع انتهاء المهلة عاد الرسول ليعلن أن الخاقان على استعداد لقبول الإسلام إذ أرسل إليه يقول له : " أيها الأمير إني قد قبلت الإسلام، وأجبت وأُجيبت، ولكن وجه إليَّ برجل من أصحابك يشرحه لي "(٢). بمعنى آخر أرسل الخاقان إلى مروان يعلن إسلامه، ويطلب منه أن يرسل إليه من يعلمه قواعده، وهذا ما أكده البلاذري كذلك إذ يقول على لسان الخاقان : " وقبلت الإسلام، فأرسل إليَّ من يعرضه عليَّ "(٣).

أرسل محمد بن مروان إلى خاقان الخزر اثنين من الفقهاء هما : نوح بن السائب الأسدي، والآخر هو عبدالرحمن بن فلان الخولاني، فعرضا عليه الإسلام، ودار نقاش بين الفقيهين وخاقان الخرز كما يروي ابن الأعثم الكوفي(٤) حول رغبة الخاقان في أن يحلا له الخمر والميتة، ولكن رد عليه الفقيه الأسدي بقوله:

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٢٤٤-٢٤٥.
(٢) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٧٤.
(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٢٤٥.
(٤) الفتوح، ج٨، ص٧٤.

" ما كنت بالذي أحل ما حرم الله، ولا أحرم ما أحل الله، لأن الدين لا يصلحه إلا النصيحة والصدق .. فإن أسلمت حرمت عليك الميتة والدم ولحم الخزير، وكل شيء لا يذكر عليه اسم الله إذا ما ذبح "، فرد عليه الخاقان : " أنتم المسلمون حقًا "، وأسلم الخاقان، وأبدى استعدادًا طيبًا لقبول أحكام الشريعة الإسلامية، كما أسلم معه خلق كثير من أهل بيته، وأهل بلده، وأقره مروان بن محمد على ملكه، ثم أخاه أخوة الإسلام، وودعه وقبلً هداياه، وسار راجعًا يريد مدينة باب الأبواب[1]، وخلفه قطار طويل من الأسرى، يقدر بأربعين ألف أو يزيد، دون أن يترك ببلاد الخزر حاكمًا من قبله، معتمدًا على حكمها من قبل خاقان مسلم، ودون أن يخضعها إخضاعًا كاملاً[2].

وقد يشكك البعض في اعتناق خاقان الخزر للإسلام، مستندًا إلى أن هذا الحادث، لم تذكره المصادر العربية أو البيزنطية بالمقارنة إلى النتائج الثابتة لاتخاذ الخزر اليهودية دينًا رسميًا لدولتهم بعد ذلك بعدة سنوات كما يذكر كيستلر[3]. ولكن تجدر الإشارة **أولاً** : إلى أن خبر إسلام خاقان الخزر، قد أورده كل من البلاذري (ت ٢٧٩هـ)، وكذلك ابن الأعثم الكوفي (ت ٣٠٤هـ)، وكلاهما مؤرخ ثقة قريب من وقوع الحدث. أما المصادر البيزنطية فقد اكتفت بذكر معلومات تتعلق برحيل جماعة من اليهود من بيزنطة إلى بلاد الخزر، وكان هؤلاء سببًا في اتخاذ الخزر اليهودية دينًا رسميًا.

---

(١) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٧٤؛ وانظر أيضًا : البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٢٤٥.

(٢) دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٢٧-١٢٨.

(٣) كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة، ترجمة أحمد نجيب هاشم، ص٣٥.

ثانيًا : فيما يتعلق بصدق نية ملك الخزر في إسلامه، فإذا كان قد تظاهر بالإسلام وبالتبعية للدين الإسلامي، فإن هذا التظاهر قد أثمر ثمرته، وحقق فائدته المرجوة، وهي انتشار الإسلام في بلاد الخزر، إذ أسلم بإسلام الخاقان، أهل بيته، وأهل بلده، كما ذكرت المصادر العربية.

ثالثًا : إن دخول خاقان الخزر الإسلام، لا يعني أن الإسلام قد انتشر على نطاق واسع في بلاد الخزر، الممتدة من بحر قزوين وحتى البحر الأسود، ولكن يعني أن الإسلام قد انتشر خلال تلك الفترة على نطاق محدود، ولعل خاقان الخزر كان صادقًا في إسلامه، بدليل ما جاء في رواية ابن الأعثم الكوفي، حول سؤاله عما يحله الإسلام وما يحرمه، ورده على مروان بن محمد بقوله : " أنتم مسلمون حقًا "، فضلاً عن مسارعته باعتناق الإسلام عن اقتناع.

على أن محاولة نشر الإسلام في بلاد الخزر، لم تأخذ صفة الدوام والاستمرار، وذلك لإهمال المسلمين شأن بلاد الخزر بعد ذلك، إذ ترك مروان بن محمد ولايته، وعزم على نيل الخلافة؛ وبخلافته انتهت الخلافة الأموية، وحدث صراع مرير بين المسلمين، أدى إلى توقف التوسع الإسلامي، وبالتالي توقف انتشار الإسلام في تلك الجهات.

وخلال الفترة التي انشغل فيها المسلمون بصراعاتهم، تغير خاقان الخزر الذي دخل في الإسلام بآخر لا يعرف عن الإسلام شيئًا، كما وجدت اليهودية طريقًا لها في بلاد الخزر، فاتخذوها دينًا رسميًا. وقد اختلفت الآراء حول التاريخ الذي دخلت فيه اليهودية بلاد الخزر، فيذكر البعض أنها دخلت في عام ١٢٣هـ/٧٤٠م في حين يرى البعض الآخر، ومنهم المسعودي أنها دخلت في عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) فقد جاء في روايته : " فأما اليهود فالملك

وحاشيته، والخزر من جنسه، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود، وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين من بلاد الروم "[1].

يتضح من عبارة المسعودي أن الذي تهود هو الملك وحاشيته والخزر من بني جنسه، أما بقية أهالي بلاد الخزر فلم يعتنقوا اليهودية، وتؤكد مصادر أخرى ذلك إذ تروى " أن رئيسهم الأعظم يهودي أو على دين اليهود، وكذلك يميل ميله من القواد العظماء والكبراء، أما البقية منهم على دين شبيه بدين الأتراك الغز"[2]. ويقصد بدين الأتراك الغز هنا الإسلام، الذي حاول المسلمون نشره في بلاد الخزر، من خلال فتوحاتهم هناك في العصر الراشدي فالأموي، فالعصر العباسي كذلك.

اتجهت سياسة الخلافة العباسية إلى منطقة الحدود بينها وبين بلاد الخزر في محاولة لتجنب هجمات الخزر من ناحية، وجذبهم إلى الإسلام من ناحية أخرى، وذلك عن طريق المصاهرات، والعلاقات الثقافية والعلمية التي ربطت بين الجانبين، ففي السنوات الأولى من خلافة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م)، ولي يزيد بن أسيد السلمي ولاية أرمينية[3]، ولما وصل إليها، كتب له الخليفة المنصور ــ حرصًا على تأمين حدوده مع الخزر ــ يدعوه إلى مصاهرة

---

(١) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص١٧٨. ولمزيد من التفاصيل حول اعتناق الخزر اليهودية، انظر : المسعودي مروج الذهب، ج١، ص١٧٨؛ دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٣٥ وما يليها؛ كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة، ص٢٣، ١٦١ وما يليها؛ محمد عبدالشافي، مملكة الخزر، ص١٥٤ وما يليها.

(٢) ابن سته، الأعلاق النفيسة، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٢٩؛ الكرديزي، زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، القاهرة، ١٩٨٢م، ج٢، ص٤٦٣.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٢٤٦؛ ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٢٢٩.

ملك الخزر حتى تستقيم له البلاد، وذكر ابن الأعثم الكوفي تفاصيل ذلك، فذكر : "أنه بعد أن وصل كتاب المنصور إلى زيد، أرسل يزيد إلى ملك الخزر، وكان يدعى (تعاطر) فخطب إليه ابنته، وكان يقال لها (خاتون)، فأجابه ملك الخزر، فتزوجها يزيد على مائة ألف درهم "[١].

ويصف ابن الأعثم الكوفي الموكب الرائع الذي احضر العروس الخزرية جنوبًا عبر ممرات جبال القوقاز فيذكر " وزفت خاتون من بلاد الخزر إلى بلاد الإسلام، ومعها عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر، ومعها أربعة آلاف رمكة بفجولها، وألف بغل وبغلة، وألف إنسان، وعشرة آلاف حمل خزري من الجمال الصغار، وألف جمل تركي، كل جمل منها بسنامين، وعشرون ألف شاة، وعشر عجلات على مثل القباب، لها أبواب مضروبة بصفائح الذهب والفضة، مفروشة بالسمور، ومحللة بالديباج، وعشرون عجلة فيها أمتعة وآنية من الذهب والفضة وغير ذلك "[٢]. ويتابع ابن الأعثم فيذكر : " أن ابنة ملك الخزر ما أن وصلت إلى بلاد الإسلام، حتى أرسلت إلى يزيد تقول : (ابعث لي نساء من نساء المسلمين حتى يعلمنني الإسلام، ويقرئنني القرآن، فإذا تعلمت ذلك فشأنك بي "[٣]. فأرسل إليها يزيد عدة من النساء ، فعلمنها الإسلام وأقرأنها القرآن، عندئذ أذنت له في الدخول عليها.

يتضح من هذه الرواية أن ابنة ملك الخزر، كانت على معرفة بالإسلام وشرائعه، وأظهرت رغبة قوية في زيادة معرفتها به وفي قراءة القرآن، وجعلت

(١) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٢٢٩.
(٢) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٢٢٩-٢٣٠.
(٣) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٢٣٠.

ذلك شرطًا لها قبل أن تأذن ليزيد بالدخول عليها. ومما لاشك فيه إنه قد أسلم بإسلامها عدد كبير من الذين جاءوا بصحبتها، وقد ذكر ابن الأعثم الكوفي أن عددهم عشرة آلاف من أهل بيت من الخزر، وإذا كانت أميرتهم قد اعتنقت الإسلام، فما بالك بهم! وهكذا أسفرت مصاهرة القائد المسلم يزيد بن أسيد من ابنة ملك الخزر عن اعتنقها الإسلام هي وحاشيتها، التي جاءت بصحبتها.

أقامت خاتون ابنة ملك الخزر عند يزيد سنتين وأربعة أشهر، وولدت منه ولدين، ثم ماتت بعد ذلك، ومات ولداها، فاغتم عليها يزيد غمًا شديدًا كما يذكر ابن الأعثم(١). وبموت الخاتون عادت حاشيتها إلى بلاد الخزر، إلا أن عودة الحاشية التي كانت قد أسلمت بإسلام أميرتها، كان من العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام في بلاد الخزر، وإن كان على نطاق محدود كذلك.

وارتبطت الخلافة العباسية بمصاهرة أخرى مع ملك الخزر في عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٦٨-٨٠٨م) وبالتحديد في عام ١٨٢هـ/٧٩٨م حيث تزوج فضل بن يحيى البرمكي بابنة خاقان الخزر(٢)، مما يظهر مدى حرص الخلافة على استمرار علاقات المودة والصداقة مع الخزر عن طريق المصاهرة.

وتوضح العلاقات الثقافية والعلمية التي ربطت الخلافة العباسية والخزر خاصة في عهد الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧-٢٣٢هـ/٨٤٢-٨٤٧م) أن الإسلام عرف وانتشر في بلاد الخزر، فقد بعث هذا الخليفة العالم محمد بن موسى الخوارزمي المنجم ـ في بداية عهده ـ إلى طرخان ملك الخرز، وذلك بطبيعة الحال لمقاصد علمية(٣).

---

(١) ابن الأعثم الكوفي، الفتوح، ج٨، ص٢٣٠.

(٢) عن هذه الزيجة انظر: الطبري، تاريخ الرسل، ج٨، ص١٦٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص١٦١.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بيروت، ١٩٨٤م، ص٢٧٧.

كذلك تعتبر بعثة سلام الترجمان وزيارته لبلاد الخزر من اجل معاينة سد يأجوج ومأجوج من الدلائل على الصلات القوية التي ربطت الخلافة العباسية بالخزر في عهد الواثق أيضًا، ويفصل ابن خرداذبه بشكل دقيق لهذه البعثة، وذلك من خلال تقرير أعد للخليفة الواثق بشأن هذه البعثة، فيذكر : " .. أنهم أقاموا عند طرخان ملك الخزر يومًا وليلة، وأرسل معهم خمسة أدلاء، وساروا حتى وصلوا إلى حصون بالقرب من الجبل الذي كان سد يأجوج ومأجوج في شعب منه، ووجدوا في تلك الحصون قومًا يتكلمون بالعربية والفارسية، مسلمون يقرأون القرآن، ولهم كتاتيب ومساجد .. "[١]. مما يظهر في وضوح تام انتشار الإسلام في تلك الجهات.

وهناك من الدلائل العديدة التي تشير إلى أن الخزر كانوا يعيشون في كنف الخلافة العباسية وفي بلادها، بل ومنهم من تولى مناصب كبرى في داخلها، ففي عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) وبالتحديد في عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م تخلت ثلاثمائة أسرة عن ديار الخزر، وجاءت إلى ديار الإسلام رغبة في اعتناق الإسلام، ولدى وصولهم إلى مدينة الباب (دربند) أسكنهم والي أرمينية وأذربيجان ـ وهو آنذاك بغا الكبير ـ في هذه المدينة، وفي موقع شمكور القديم، وأعاد تسمية المكان فسماه المتوكلية تيمنًا باسم الخليفة المتوكل[٢]. بل وعاش الخزر في حواضر الخلافة العباسية ومنها مدينة سامراء،

---

(١) ابن خرداذبة، المسالم والممالك، ص١٤١-١٤٥؛ وانظر أيضًا : المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٢٧-٢٢٩.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ج١، ص٢٤٨؛ وانظر أيضًا : دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص٢٥٦-٢٥٧، ٢٦١.

فيذكر اليعقوبي عند حديثه عن شوارع مدينة سر من رأى (سامراء) أن " الشارع الرابع يعرف بشارع برغامُش التركي، وفيه قطائع الأتراك والفراغنة .. وأخر منازل الأتراك، وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق "(١).

وهناك العديد من الشخصيات الخزرية التي لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الخلافة العباسية وفي تاريخ الإسلام، ومنها : إسحاق بن كنداج الخزري في عهد الخليفة العباسي المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م)، وأبو منصور تكين بن عبدالله الخزري، وكذلك عبدالله بن باشتو الخزري في عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م).

أما عن إسحاق بن كنداج، فقد كان عاملاً على الموصل والجزيرة، وقد نجح في الحيلولة بين المعتمد وبين الوصول إلى مصر هو ومن معه من أتباع، بناء على دعوة من واليها أحمد بن طولون، وكان الموفق طلحة أخوه الخليفة المعتمد وشريكه في الخلافة قد أمر إسحاق باللحاق بالمعتمد لرده، ووعده بالأموال والإقطاعات، وبالفعل نجح إسحاق بن كنداج في اللحاق بالخليفة المعتمد قبل أن يخرج من حدود العراق، وقام إسحاق بإقناع الخليفة المعتمد بأن ما عزم عليه هو الخطأ، وذلك بعد أن قيد أتباعه الذين خرجوا معه، وأعاد إسحاق الخليفة المعتمد إلى سامراء في عام ٢٦٩هـ/٨٨٣م، ولقاء ذلك خلع عليه الموفق وقلده سيفين بحمائل إحداهما عن يمينه والآخر عن يساره، وسمي ذا السيفين، وخلع عليه بعد ذلك بيومين قباء ديباج ووشاحان، وتوج بتاج، وقلد سيفًا كل ذلك مفصص بالجوهر، وشيعه إلى منزله هارون بن الموفق وصاعد بن مخلد والقواد، كما

---

(١) اليعقوبي، كتاب البلدان، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٢.

يروي الطبري[١].

وعندما ساءت العلاقة بين ابن طولون والخليفة المعتمد، عقد المعتمد لإسحاق بن كنداج الخزري على أعمال ابن طولون، كما ولي شرطة الخاصة، ثم تولى بعد ذلك المغرب كله[٢]. مما يوضح مدى الدور الذي لعبه هذا الخزري في الخلافة العباسية.

أما عن أبي منصور تكين بن عبدالله الخزري، فقد عين من قبل المعتمد واليًا على مصر ثلاث مرات خلال الفترة من (٢٩٧-٣٢٠هـ/٩٠١-٩٣٢م)، ونجح بمساعدة الخلافة العباسية في صد المحاولات التي قام بها الفاطميون للنيل من مصر والاستيلاء عليها. كما أنه اهتم خلال ولايته على مصر بالقضاء على عوامل الاضطراب فيها، وأضعف من شوكة الجند الثائرين وأخرجهم منها، وأعاد إليها الأمن والاستقرار، وظل واليًا على مصر حتى توفى الخليفة العباسي المقتدر في عام ٣٢٠هـ/٩٣٣م وخلفه أخوه القاهر بالله، الذي أقر تكين على ولايته، وبعث إليه بالخلع، وظل أبو منصور تكين واليًا على مصر حتى توفى عام ٣٢١هـ/٩٣٣م[٣].

هذا إلى جانب الدور الذي لعبه عبدالله باشتو الخزري الذي فر من خاقان الخزر، وعمل سفيرًا لدى الخليفة المقتدر على نحو ما سنرى[٤].

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٦٢٢.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ج٩، ص٦٢٧، ٦٥٣.

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر : محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص٥١-٥٣؛ سيدة إسماعيل الكاشف، مصر في عصر الأخشيديين، القاهرة ١٩٧٠م، ص٢١-٣٨.

(٤) انظر ما يلي ص

المسلمون في المدن الخزرية :

انتشر المسلمون في طول بلاد الخزر وفي عرضها وفي كافة مدنها، وعاشوا بها ومارسوا حياتهم بكافة أشكالها، بل وأثروا في حياة الخزر بمختلف مناحيها، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية، عاش المسلمون في مدينة خمليج[1] الخزرية، وفي مدن بلنجر، وسمندر، والبيضاء، وكذلك في العاصمة الخزرية أتل وغيرها من مدن الخزر. وكانت هذه المدن معروفة للشعراء العرب ومن هؤلاء البحتري الذي قال في خمليج وبلنجر :

شرف تزيد بالعراق الذي عهدوه في خمليج أو ببلنجرا[2].

ويوضح هذا البيت في جلاء أن المسلمين عاشوا في بلاد الخزر وكانت لهم بها جولات.

وهناك بعض العلماء والأئمة المحدثين ممن عاشوا في مدينة بلنجر ونسبوا إليها، ومن هؤلاء (أحمد بن عبيد بن ناصح بن بلنجر) وهو محدث ونحوي، له ذكر في شرح ديوان المفضل الضبي[3].

ويذكر ابن رسته أن ببلاد الخزر مدينتين هما سارغشن[4] وخمليج .. وفي

---

(١) تكتب مدينة خمليج بشكال متعددة منها خلميج أو خملنج وغيرها وتعني راضي مسرور، انظر: ابن رسته، الأعلاق، ص١٢٩؛ الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبنزج، ١٩٢٣م، ص٣٤٦؛ الكرديزي، زين الأخبار، ج٢، ص٤٦٤، حاشية ٢.

(٢) انظر : ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص١٠٩، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٢؛ مينورسكي، حدود العالم، لندن، ١٩٣٧م، ص١٦٢؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص٣٤٦.

(٣) الزبيدي، شرح القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، ج٣، ص٥٩.

(٤) سارغشن كلمة تركية تعني البلدة الصفراء، ولمزيد من التفاصيل انظر عنها : الكرديزي، زين الأخبار، ج٢، ص٤٦٤؛ دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص١٥٥، ٣٢٩-٣٣١.

هاتين المدينتين خلق من المسلمين لهم مساجد وأئمة ومؤذنون وكتاتيب[١]. كذلك يذكرالكرديزي أن الخزر يأخذون منهم في كل عام شيئاً من المال، كل على قدر طاقته[٢].

أقام المسلمون كذلك في مدينة سمندر الخزرية، التي تقع بين بحر الخزر (بحر قزوين) ومدينة باب الأبواب، والتي ظلت عاصمة للخزر حتى أجبر المسلمون خاقانهم على الرحيل عنها، وإقامة عاصمة جديدة للخزر على بحر الخزر تعرف باسم (أتل) نسبة إلى نهر أتل (أي الفولجا) وبين عاصمة الخزر القديمة سمندر والجديدة أتل مسيرة سبعة أيام[٣].

ويتحدث الاصطخري عن المسلمين في سمندر فيذكر : " .. وفيها خلق كبير من المسلمين، ولهم بها مساجد "[٤] وأكد المقدسي ذلك بقوله " أن بها (أي بسمندر) مساجد كثيرة "[٥]، وكذلك يذكر ابن حوقل " وللخزر مدينة تسمى سمندر .. وكان بها بساتين كثيرة، يقال أنها كانت تشمل على ألف كرم .. وهناك كرم أو بستان ماله على المساكين صدقة .. وكان يسكن هذا البلد المسلمون .. ولهم بها مساجد "[٦].

وتضيف عبارة ابن حوقل عن المسلمين في سمندر، أنهم كانوا يطبقون أحكام الشريعة الإسلامية، فيما يتعلق بالصدقات، فقد خصص المسلمون في

---

(١) ابن رسته، الأعلاق، ص١٢٩.

(٢) الكرديزي، زين الأخبار، ج٢، ص٤٦٤.

(٣) انظر المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٧٨.

(٤) مسالك الممالك، ص١٣٠.

(٥) أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

(٦) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٣؛ والمسالك، ص٢١٢.

سمندر بستان من بساتينهم يصرف ريعه صدقة على الفقراء والمساكين عملاً بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾، هذا إلى جانب وجود المساجد في سمندر والتي يؤدون فيها شعائر الإسلام من آذان وإقامة وصلاة.

وشهدت مدينة أتل (العاصمة الخزرية) أكبر تجمع للمسلمين فيذكر ابن فضلان " ولملك الخزر مدينة عظيمة على نهر أتل (الفولجا) وهي جانبان، في أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز[1]، وهو مسلم. وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم، ولا يقضي بينهم غيره "[2]. ويتابع ابن فضلان روايته فيذكر : " وللمسلمين في هذه المدينة مسجد جامع يصلون فيه الصلاة، ويحضرون في أيام الجمع، وفيه منارة عالية وعدة من مؤذنين، فلما اتصل بملك الخزر في سنة ٣١٠م أن المسلمين هدموا الكنيسة التي كانت في دار البابونج، أمر بالمنارة فهدمت وقتل المؤذنين. وقال : لولا أني أخاف أن لا يبقى في بلاد الإسلام كنيسة إلا هدمت لهدمت المسجد "[3].

ولابد بد من وقفة عند رواية ابن فضلان هذه إذ يتضح من خلالها :

أولاً : أن العاصمة الخزرية انقسمت قسمين قسم عاش فيه ملك الخزر وهو يدين باليهودية، وقسم آخر عاش فيه المسلمون.

---

(١) ويقال أن اسمه خزمة ولعلها أصوب من خز، انظر ابن فضلان، الرسالة، ص١٧٢، هامش٣؛ وانظر أيضًا ياقوت، معجم البلدان، م٢، ص٣٦٩.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١٧٢.

(٣) نقلاً عن ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٢، ص٣٦٩.

ثانيًا : أنه كان يتولى أمر المسلمين في بلاد الخزر رجل من رجالات الملك، واسمه خز أو خزمة، وهو مسلم بطبيعة الحال، حتى يمكنه التعامل مع المسلمين، فهو ينظر في أمورهم، ويقضي بينهم، ويشرف على شئون التجارة بينهم وبين التجار الوافدين إليهم.

ثالثًا : ظهر ملك الخزر بمظهر الحريص على تحاشي الصراعات التي قد تنشب بين المسلمين وغيرهم في بلاد الخزر بسبب التعصب الديني، بدليل أنه عندما علم بأن المسلمين هدموا أحدى الكنائس، أمر فقط بهدم منارة مسجدهم الجامع بالعاصمة أتل، وقتل المؤذنين مكتفيًا بذلك، وذلك خوفًا من تصاعد حدة الخلاف بين الطرفين، وخوفًا كذلك من رد فعل العالم الإسلامي أجمع الذي قد تدفعه غيرته على دينه إلى أن يقوم بهدم الكنائس وتدميرها في بلاده، ورغم كون ملك الخزر يهوديًا إلا أنه كان حريصًا على أن يسود التسامح والأمن ربوع بلاده، وأن يتمتع الجميع بالحرية الدينية، فيذكر الإدريسي " ولا يعير أحد على أحد شيئًا من أمر دينه "(١).

وسرعان ما تزايد عدد المسلمين في بلاد الخزر بعد عصر ابن فضلان، فعندما تحدث كل من الأصطخري (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) وابن حوقل (ت. أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) عن أتل، عاصمة بلاد الخزر، أكدا رواية ابن فضلان التي تذكر أنها قطعتان إحداهما : غربي النهر (اتل أي الفولجا) وهي أكبرهما، والأخرى من شرقيه، وذكرا أن الملك يسكن في الجانب الغربي .. ثم ذكرا حرفيًا ما يلي : "وفيهم خلق من المسلمين، يقال أنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم، وبها نحو من ثلاثين مسجدًا "(٢). وأضاف المقدسي : " ومسجد جامع

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٢، ص٨٣٤.

(٢) الأصطخري، مسالك الممالك، ص١٢٩؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٠.

له مئذنة شامخة"[١]. وذكر الاصطخري وابن حوقل كـذلك أن الخـزر مسـلمون ونصارى وعبدة أوثان، أقل الفرق فيهم اليهود، وأكثرهم المسلمون، إلا أن الملك وخاصته يهود[٢]. وأكد المقدسي على كثرة عدد المسلمين في بلاد الخزر كـذلك بقوله : "وبها مسلمون كثر "[٣].

توضح هذه العبارات بجلاء تزايد عدد المسلمين في بلاد الخزر، فعلى الرغم من أن اليهودية كانت الديانة الرسمية، ودين الملك وخاصته، إلا أن عدد اليهـود كان أقل بينما كان عدد المسلمين يفوقه بكثير في تلك العاصمة الخزرية.

وحدد المسعودي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) طبيعة العمـل الـذي كـان يؤديـه المسلمون في بلاد الخزر عند حديثه عن العاصمة أتل ويسميها أمـل فـذكر : " والغالب في هذا البلد المسلمون، لأنهم جند الملك "[٤]. وهم يعرفون في هذا البلـد باللارسية، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم، وكان في قديم الزمان بعـد ظهـور الإسلام وقع في بلادهم جدب ووباء، فانتقلوا إلى ملك الخـزر، وهـم ذوو بـأس وشدة، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه، وأقاموا في بلده على شروط بينهم :

إحداها : إظهار الدين والمساجد والآذان.

وثانيها : أن تكون وزارة الملك فيهم، والوزير في وقتنا ها ــ أي عصـر المسعودي ــ منهم وهو أحمد بن كويه.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

(٢) الاصطخري، مسالك، ص١٢٩؛ ابن حوقل، صـورة الأرض، ص٣٣٠؛ وانظـر أيضًـا المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٧٨-١٧٩.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٧٩.

وثالثها : أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين، وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم، لا يحاربون أهل ملتهم، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن[1] والدروع والخوذ، ومنهم رامحة أيضًا على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح.

ولهم قضاة مسلمون، ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيهم سبعة قضاة أو قضاة سبعة : اثنان منهم للمسلمين، واثنان للخزر، يحكمان بحكم التوراة، واثنان بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية، وواحد للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية، فإذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام، اجتمعوا إلى قضاة المسلمين، فتحاكموا إليهم، وانقادوا إلى ما توجبه شريعة الإسلام ... وكل مسلم في تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم اللارسية[2].

ثم يتحدث المسعودي عن فريق آخر من المسلمين الذين عاشوا في بلاد الخزر فيذكر : " وفي بلاده (أي بلاد ملك الخزر) خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارسية، فروا إلى بلاده لعدله وأمنه، ولهم مسجد جامع، والمنارة تشرف على قصر الملك، ولهم مساجد أخرى، فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن، فإذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى، لم يكن للملك بهم طاقة "[3].

يتضح من عبارات المسعودي أولاً : أنه قسم المسلمين الذين عاشوا في بلاد الخزر إلى فريقين من حيث الدور الذي لعبوه في بلاد الخزر : الأول : وهم

(١) الجواشن وهي الدروع.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٧٩-١٨٠.
(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨٠.

جند الملك، والثاني : وهم التجار والصناع والحرفيين.

وبالنسبة للفريق الأول وهم جند الملك، فقد عاشوا بجوار الملـك، أي فـي القسم الغربي من العاصمة أتل حيث يسكن الملك نفسه، وقد أكد ذلك الأصطخري بقوله : " والقسم الغربي خاص بالملك وجنده"(١). وقد أطلق المسـعودي علـيهم اسم (اللارسية) وذكر أنهم من الخوارزمية، وأنهم جاءوا إلى بـلاد الخـزر مـن خوارزم، بعد أن حل ببلادهم الوباء، ودخلوا في خدمة ملك الخزر، وعملوا كجنـد له وبشروطهم، التي ذكرها المسعودي، والتي يتضح منها، أنهم لم يقوموا بـدور عسكري فقد بل وسياسي كذلك إذ أن وزير الملك كان منهم، وكـان يـدعى فـي عصر المسعودي أحمد بن كويه، ولعل هذا الوزير قام بنفس الدور الذي كان يقوم به (خز أو خزمة) في أيام ابن فضلان.

أما عن القضاء فقد مارسه اثنين من القضاة من جملة سبعة قضـاة لـبلاد الخزر كلها، يحتكم إليهم المسلمون اللارسية، بل وكذلك سائر أهل الخزر خاصـة عندما تحل بهم النوازل، ويعجزون عن الحكم بينهم فيلجأون إلى قضاة المسلمين، ويرضون بحكم الشريعة الإسلامية.

وعلى هذا النحو فقد شكل الفريق الأول من المسلمين الذين عاشوا في بلاد الخزر قسمًا هامًا من جيش ملك الخزر، فقد عددهم المسعودي بسبعة آلاف كـل بسلاحه وآلاته الحربية، كما تمتعوا إلى جانب ذلك بنفوذ سياسي وقضائي كبيـر، فقد كان وزير الملك منهم، كما كان لهم قضاتهم الـذين يحكمـون بيـنهم وفقًـا للشريعة الإسلامية الغراء.

---

(١) الأصطخري، مسالك الممالك، ص١٣٠.

أما عن الفريق الثاني من المسلمين فكانوا يمارسون التجارة والصناعة إذ أنهم تجار وصناع، وهم غير اللارسية الذين ذكرهم المسعودي، وبالتالي فليس شرطًا أن يكونوا من أهل خوارزم، إذ لم يحدد المسعودي أجناسهم أو بلادهم، واكتفى بأن ذكر " أنهم فروا إلى بلاده لعدله وأمنه " وقد عاش هذا الفريق من المسلمين في الجانب الشرقي من المدينة (أتل) أكد ذلك إلى جانب المسعودي الأصطخري أيضًا إذ يذكر " والنصف الشرقي من الخزر فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر "(١). وجاء في رواية حسداي(٢) عن مدينة أتل عاصمة الخزر "... أنه يسكن الحي الثاني منها إسرائيليون وإسماعيليون (أي مسلمون) ومسيحيون وأقوام أخرى "(٣). وهذه الرواية كتبت في القرن العاشر الميلادي أي في نفس الوقت الذي كتب فيه المسعودي تاريخه تقريبًا.

وكان هؤلاء المسلمون من التجار والصناع كثرة، إذ بلغ عددهم عشرة آلاف، وكان لهم كما أكد المسعودي مسجد جامع، ومساجد أخرى، ومكاتب لتعليم الصبيان القرآن.

ومما لاشك فيه أن وجود المسلمين بأعداد كبيرة في عاصمة بلاد الخزر — سواء كانوا جنودًا أم صناعًا أم تجارًا — أدى إلى نشر الإسلام في تلك البلاد، هذا إلى جانب الدور الذي لعبه التجار الخوارزمية، الذين انتشروا في بلاد القوقاز، وقاموا بنشاط كبير في ميدان الدعوة إلى الإسلام، وعملوا على نشره، خاصة

(١) انظر الاصطخري، مسالك، ص١٢٩.

(٢) حسداي هو يوسف بن اسحق بن شبروط، من كبار يهود الأندلس وكان أهم وزراء خليفة قرطبة بالأندلس، وكان قد أرسل رسلاً إلى يوسف ملك الخزر، ومعهم خطاب يسأل فيه عن دولة الخزر: انظر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر، ص٧٧.

(٣) كيستلر، القبيلة الثالثة عشر، ص٧٧.

عندما توثقت العلاقات بين خوارزم وبلاد الخزر، ونشأت بينهم صلات قوية[1].

وقد جاء نشاط الخوارزمية في نشر الإسلام في بلاد الخزر بنتائج إيجابية إذ يذكر كل من ابن مسكويه[2] (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م) وابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م)[3] في حوادث سنة (٣٥٤هـ/٩٦٥م) أن طائفة من الترك (يقصد الروس) قامت بالنزول على بلاد الخزر، ولهذا طلب الخزر مساعدة أهالي خوارزم، وقد رفض الخوارزمية في البداية تقديم المساعدة لهم لأنهم يهود، ثم عرضوا عليهم اعتناق الإسلام مقابل تلك المساعدة، فوافق الخزر على ذلك، وأسلموا إلا ملكهم "، ويضيف ابن الأثير " فنصرهم أهل خوارزم، وأزالوا الترك عنهم، ثم أسلم ملكهم بعد ذلك ".

وهناك إشارات مستمرة إلى الخزر على أنهم مسلمون بعد هذا التاريخ (٣٥٤هـ/٩٦٥م) فيذكر المقدسي (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) : " وسمعت أن المأمون غزاهم من الجرجانية[4] وملكه ودعاه إلى الإسلام "[5]، ويقصد بالمأمون هنا أبوالعباس مأمون بن محمد، والي الجرجانية، الذي أصبح واليًا على جميع خوارزم بعد ذلك. وتعني رواية المقدسي أن إسلام الخزر كان نتيجة لحروب

---

(١) انظر : حسن محمود، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص١٤٨؛ بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٧٧؛ هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، القاهرة، ١٩٨٥م، ج١، ص٦٤.

(٢) ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج٢، ص٢٠٩.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٨، ص٥٦٥.

(٤) الجرجانية إحدى المناطق التابعة لخوارزم.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

المأمون وغزواته في بلادهم[1].

ويذكر المقدسي في موضع آخر في معرض حديثه عن بلدة " خزر " وكانوا قد رحلوا عنها إلى ساحل البحر، وقد عادوا الآن إليها (سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م) وأسلموا بعد ما كانوا يهودًا "[2]. ويؤكد ذلك ما ذكره ابن حوقل حين قال : " وقد بلغني أن كثيرًا منهم (أي من الخزر) رجعوا إلى أتل وخزران بإعزاز من محمد بن أحمد الأزدي صاحب شروان[3] شاه لهم، وتأييدهم برجاله وقومه، وهم (أي الخزر) راجون مؤملون أن يعاهدوهم (أي الروس) ويكونوا تحت طاعتهم بشيء من البر يقيمونه لهم "[4]. وربما كانت مساعدة صاحب شروان شاه قدمت مشروطة بقبول الإسلام، وليس ذلك بالشيء المستحيل خاصة أن أوضاع الخزر كانت سيئة إلى حد خطير جدًا في ذلك الحين[5].

جملة القول أن المسلمين عاشوا في بلاد الخزر، وفي مدنهم المختلفة، وأدوا دورًا كبيرًا وأثروا في حياة الخزر السياسية والحربية والاقتصادية، وجاهدوا من أجل نشر الإسلام على أرضهم، حقيقة أن بعضهم اعتنق الإسلام، ولكن غالبيتهم اعتنقوا اليهودية، الديانة الرسمية لدولة الخزر ولخاقان الخزر،

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٧٦.

(٣) مدينة شروان أحدى مدن أرمينية فيما يلي نهر الكر على بحر قزوين، بناها أبو شروان فسميت باسمه، ثم خففت بإسقاط شطر اسمه. وعنها انظر : ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٥٨؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٦.

(٥) انظر دنلوب، تاريخ يهود الخزر، الترجمة العربية، ص٣٢٧.

ورغم ذلك لم يكن الخاقان يسمح لأحد بالمرور عبر أراضيه لمهاجمة بلاد العرب والمسلمين، وذلك نتيجة لضغط الغالبية المسلمة التي كانت تعيش في بلاده، خاصة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، والتي كان خاقان الخزر يعتمد عليها في حروبه في المنطقة، بالإضافة إلى مدى الخطر الذي يشكلونه على الخزر إذا اتحدوا مع النصارى ضد الخاقان على نحو ما ذكر المسعودي(١). وكان خاقان الخزر يقول : " .. أنا أحرس بعون الله، مصب النهر (الفولجا)، ولا أسمح للروس القادمين في سفنهم أن يغزوا بلاد العرب .. لأنني إذا أذنت لهم بذلك فسوف يكتسحون بلاد المسلمين ربما حتى بغداد "(٢). مما يؤكد حرص الخاقان على علاقات المودة التي كانت تربطه بالمسلمين داخل بلاده وخارجها.

الإسلام في بلاد البرطاس :

إذا ترك الباحث شعب الخزر وجنوب الفولجا، وصعد قليلاً تصادفه بلاد البرطاس، وهي تقع بين بلاد الخزر وبلاد البلغار، وبينها وبين بلاد الخزر كما تذكر المصادر مسيرة خمسة عشر يومًا، وهي نفس مساحة بلادهم، ومن ثم فهم متاخمون لبلاد الخزر، وليس بينهم وبين الخرز أمة أخرى(٣).

---

(١) انظر ما سبق، ص٣٦.

(٢) دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص٣١٩؛ وانظر أيضًا طارق منصور، الروس والمجتمع الدولي (٩٤٥-١٠٥٤م)، القاهرة ٢٠٠١م، ص١٥٢.

(٣) انظر ابن سته، الأعلاق، ص١٣٠؛ ياقوت، معجم، ج١، ص٣٧٤؛ الأصطخري، المسالك، ص١٣٠؛ الكرديزي، زين الأخبار، ج٢، ص٤٦٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٩١٩؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م، ص٨٨.

أما شعب البرطاس فيقيم على نهر يسمى باسمه، ويعرف باسم نهر برطاس، ويصب هذا النهر في حوض نهر أتل (الفولجا) وهو أحد روافده، ويذكر ياقوت مؤكدًا ذلك " وهم قوم مفترشون على وادي أتل (الفولجا) "[١]. ويذكر ابن سعيد المغربي " ولبرطاس مجالات كثيرة على نهر أتل الذي في شرقيهم وجنوبهم"[٢]. بل وتقع أشهر مدنهم وأهمها وهي مدينة (برطاس) عند ملتقى نهري أوكا وكاما وهما من روافد نهر الفولجا[٣].

وشعب البرطاس شعب تركي إذ يذكر المسعودي " وبرطاس أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر "[٤]. لذلك كان البرطاس يدينون بالطاعة لملك الخزر، وليس لهم ملك سواه كما يذكر ابن رسته[٥]، وليس لهم رئيس يضبطهم ويجوز حكمه فيهم، إلا أن لهم في كل محلة منهم شيخ أو اثنان يتحاكمون إليه فيما يقع بينهم.

وقد اعتنق البرطاس الإسلام، فيذكر ياقوت في معجمه[٦] " وهم مسلمون، ولهم مسجد جامع ". ويبدو أن عدد المسلمين من أهل البرطاس كان كبيرًا إذ يذكر الحميري : " وأخبر بعضهم ممن كان يخطب لهم، ويصلي بهم أن عدد المسلمين فيها كان ينتهي إلى عشرين ألفًا "[٧]. وإذا كان الحميري مبالغاً في هذا العدد إلا

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٣٨٤؛ وانظر أيضًا : الدمشقي، نخبة الدهر، ص٣٤٧.
(٢) كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠م، ص٢٠٥.
(٣) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المغرب ١٩٩٠م، ص٦٨.
(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.
(٥) ابن سته، الأعلاق، ص١٣٠.
(٦) ج١، ص٣٨٤.
(٧) الحميري، الروض المعطار، ص٨٩.

أنه يدل دلالة صريحة على انتشار الإسلام في بلاد البرطاس الواقعة على نهر أتل (الفولجا)، وأنه كان لديهم أئمة وعلماء وخطباء، يصلون بهم ويخطبون فيهم.

ويظهر من الزي الذي كان يرتديه أهل البرطاس أنهم كانوا مسلمين فيذكر الكرديزي " ولباسهم القرطق[1] والعباءة .. ولهم قلنسوة وعمامة ويلفونها حولها"[2].

أما عن كيفية دخول الإسلام في بلاد البرطاس فقد دخل مع حركة التجارة النشطة بين خوارزم وخراسان وبين برطاس، فقد ارتبطت الأخيرة بعلاقات تجارية مع خوارزم وخراسان، وكانت هناك طرق تربط سهوب البرطاس بهذه المناطق، وكانت البرطاس تصدر لها الفرو والجلود، وخاصة جلود الثعالب الممتازة والثمينة جدًا، ويصل ثمن الواحد منها مائة دينار[3]. فيذكر المسعودي " ومن بلادهم (أي من بلاد البرطاس) تحمل جلود الثعالب السود والحمر، التي تعرف بالبرطاسية، يبلغ الجلد منها مائة دينار، وأكثر من ذلك .. وتلبس السود منها ملوك العرب والعجم، وتتنافس في لبسه، وهو أغلى عندهم من السمور والفنك.."[4]. ويذكر المسعودي كذلك " .. ويتعذر أي يندر في الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود "[5].

---

(١) القرطق وهو القباء ذو الطاق الواحد، وقيل أنه قميص يصل إلى منتصف الجسم. انظر الأصطخري، مسالك، ص١٣٠، حاشية ٢.

(٢) الكرديزي، زين الأخبار، ج٢، ص٤٦٦.

(٣) موريس لومبار، الإسلام، ص٦٩.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.

(٥) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.

وعلى هذا النحو فقد لعبت حركة التجارة النشطة بين بلاد البرطاس وبلاد العرب والإسلام دورًا كبيرًا في دخول الإسلام إليهم، فمن المعروف أنه مع التجارة والتجار تنتشر الآراء والأفكار والمعتقدات.

ولا يجب إغفال الدور الذي لعبه بلغار الفولجا في إسلام البرطاس، فقد انطلقت المحاولات الأولى لنشر الإسلام بين أهل البرطاس من هؤلاء البلغار، فقد أثر البلغار تأثيرًا كبيرًا في نشر الإسلام بين أهل البرطاس، وتأثر البرطاس كذلك تأثرًا كبيرًا بالبلغار المسلمين، حتى أنهم بدأوا يهجرون عاداتهم وأخلاقهم بل ولغتهم الأصلية بعد إسلامهم، وأخذوا عادات أهل البلغار المسلمين، الذين اتبعوهم واقتدوا بهم في إسلامهم وفي أخلاقهم[1]. وهذا يدفع الباحث إلى الحديث عن بلغار الفولجا المسلمين.

---

(١) انظر : موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المغرب ١٩٩١م، ص٦٨؛ الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ١٩٠٨م، ص٢٤٦-٢٤٧.

الفصل الثاني

الإسلام والمسلمون في بلاد بلغار الفولجا

- التعريف بالبلغار وبلادهم.
- دخول بلغار الفولجا في الإسلام.
- بعثة ابن فضلان وأثرها في تعريف البلغار بأمور الإسلام.
- دور البلغار في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية.
- بلغار الفولجا والغزو المغولي.

الإسلام والمسلمون في بلاد بلغار الفولجا

التعريف بالبلغار وبلادهم:

البلغار اسم شعب لا يعرف أصله على وجه التحقيق إذ اختلفت الآراء حول تحديد أصل هذا الشعب، فيذهب فريق من الباحثين إلى القول بأنهم قوم آسيويون قريبون من الهون، أو أنهم يرجعون في أصلهم إلى الهون، بل أنهم فرع منهم[١]. في حين يذهب فريق آخر إلى القول بأن البلغار ينحدرون من أصول تركية، وقيل تركية تتارية[٢]. بينما يذهب فريق ثالث إلى القول بأنهم شعب هوني – تركي[٣].

تذكر المصادر المعاصرة العديد من الأدلة التي تؤكد صحة الرأي الذي أرجع أصل البلغار إلى الهون، فقد أشار المؤرخ نيقفوروس Nicephorus إلى كوبرات Cubratus[٤] ابن أخو أورجان الذي حكم إمبراطورية البلغار الكبرى بعد وفاة

---

(1) Gerard, C. Les Bulgares de Volga et Les Slaves du Denube, Paris, 1980, p. 16; Grousset, L'Empire des Steppes, Paris, 1948, pp. 192–193; Runciman, A History of The First Bulgarian Empire, London 1930, P. 7.

(2) Dvornik, Les Slaves, Byzance et Rome au Ix Siécle, Paris, 1926, p.9.
هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبدالحميد، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٢٤؛ وسام عبدالعزيز، دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، إسكندرية، ١٩٨٢م، ص١٦٧؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٩٢.

(3) Vasiliev, L'Empire Byzantine, T.I, p. 277; Canard, " La Relation du Voyage d'Ibn Fadlan chey les Bulgares de la Volga", dans Annales de L'Institut d'Etudes Orientales (1958) T.10, p.44.

(٤) عن كوبرات (٥٨٤-٦٤٢م) انظر: Gerard, Les Bulgares de La Volga p.73 stq.

عمه، على أنه ملك الهون Hunnorum[1]. وأشار نفس المؤرخ إلى كـــوبرات ثانية على أنه ملك الـــ Hunnogunduror[2] على اعتبار أن البلغـــار كـــانوا يشكلون فرعًا من فروع الهون، أو أنـهم خرجوا من إحدى القبائل الـهونيـــة، وأن أميرهم كوبرات مؤسس الإمبراطورية البلغارية العظمى كان يدعى " أمير الهون " أو ملك الـــ Hunnogunduror الذين ورد ذكـــرهم فـــي إشـــارة نيقفـــوروس الثانية[3]. ويشارك المؤرخ المصري يوحنا النيقيوسي نيقفوروس الرأي، فيلقـــب بدوره ملك البلغار كوبراتوس Koubrates بأمير الهون[4].

أما الرأي الثاني الذي يرجع البلغار إلى أصول تركية فهناك من الدلائل ما يشير إلى صحته كذلك. إذ يذكر المؤرخ الكنسي حنا أفسوس Johon of Ephesus فـــي أحداث عام ٥٨٥م رواية ورد فيها اسم الخزر والبلغار على أنهما إخوان[5]، مما يدل على قرابة هذين الشعبين، والصلة الوثيقة التي تربطهما، وقد أكد ذلك الأصطخري إذ يذكر " لسان البلغار مثل لسان الخزر "[6]. وهذه الصلة تؤكدها وحدة اللغة بين جميع الشعوب التركية، وقد سبقت الإشارة إلى أن الخزر من أصل تركي.

(1) Nicephorus, Breviarium rerum Post Mauricium Gestarum, In C.S.H.B., Bonnae 1837, p.14.
(2) Nicephorus, Breviarium, p.27.
(3) Besevliev, " Deux Corrections au Breviarium de Patriarche Nicephore "; Dans Revue des Études Byzantines (1970), pp. 153–159; Runciman, History of the First Bulgarian Empire, pp,5, 7, 15.
(4) Chronique de Jean, Évêque de Nikiou, trans Chapters LXVII-CXXII, Par H. Zotenberg, Paris, 1883.
(٥) نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية، مادة بلغار، ج٤، ص٨٨.
(٦) الأصطخري، مسالك الممالك، ص١٣١.

كذلك يذكر المسعودي عن البلغار " أنهم نوع من الترك "[١]. أما الدمشقي فيروي أن جماعة من البلغر، مروا ببغداد في طريقهم إلى الحج ... وسألهم سائل في أي الأمم أنتم؛ وما البلغار ؟ فقالوا: "قوم مستولدون من الترك والصقالبة "[٢]. وقد حدث فيما بعد بالفعل أن خالط البلغار الصقالبة والسلاف حين جاوروهم، وتزاوجوا منهم، وتأثروا بهم، ولكن المهم هنا أن الدمشقي أرجع أصل البلغار إلى الترك.

وإذا كان أصحاب الرأي الأول قد أرجعوا البلغار إلى أصل هوني وأصحاب الرأي الثاني أرجعوهم إلى أصل تركي، فإن أصحاب الرأي الثالث ذكروا أن البلغار شعب تركي ــ هوني؛ فهم من أصل تركي، وكانت لهم صلة قرابة بقبائل الأونجور Onogrus الذين ظهروا في شمال البحر الأسود، وكان الهون من هذه القبائل. وقد اختلط البلغار مع بقية الأتراك في دولة الهون، ومن ثم فهم مزيج من الأتراك والهون[٣]. ونظرًا لأن الهون كانوا قبائل من أصل تركي، وتنطق بالتركية، وعلى هذا فالبلغار شعب من أصل تركي كذلك.

عاش البلغار منذ منتصف القرن الخامس الميلادي في الشمال الغربي من القوقاز بين بحر أزوف ووادي كوبان، ونجحوا بقيادة أورجانا Organa أو أورهان Orhan قائد قبيلة البلغار من جماعة الـ Onoghoundour أن يقيموا مملكة لهم عرفت باسم " مملكة البلغار العظمى "[٤]. وبعد أن توفى أورجانا

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.

(٢) الدمشقي، نخبة الدهر، ص٣٤٧.

(3) Lāszlō Rāsony, Tarihte Turklük, Ankara, 197, pp. 90, 94, 98.
وانظر أيضًا : هاني عبدالهادي البشير، بيزنطة وبلغاريا (٦٨١هــ/١٠١٨م) القاهرة، ٢٠٠٣م، ص١٩ وما يليها.

(4) Ostrogorsky, " The Byzantine Empire in the World of the Seven Century " In Dumbarton Oaks Papers (1959), p. 16.

خلفه ابن أخيه كوبراتوس Koubratos أو كوفرات، وخضع البلغار في ظل حكمه لسلطان الآفار[1]. ولكن عندما إنهارت قوة الآفار بعد هزيمتهم أمام أسوار القسطنطينية في عام ٦٢٦م سعى البلغار إلى الثورة والتمرد. يتضح ذلك مما رواه المؤرخ البيزنطي نيقفوروس Nicephorus وما جاء في معجزات القديس ديمتريوس St. Demetrius من أن كوبراتوس قام بثورة ضد خاقان الآفار، واشتبك معه في عدة معارك هزم فيها الخاقان، واضطر الأخير إلى الفرار، واستولى كوبراتوس على جميع الأقاليم التابعة له، ثم اتجه شمالاً مع سائر شعبه، حيث استقر البلغار في شمال القوقاز[2].

وما لبثت مملكة البلغار الكبرى أن تفككت بسبب وفاة كوبراتوس عام ٦٤٢م من ناحية، وما وقع عليها من الضغط نتيجة لتحرك الخزر من الغرب من ناحية أخرى، وانقسمت مملكة البلغار بين أبناء كوبراتوس في القرن السابع للميلاد[3]. وظل الابن الأكبر وهو بايان Baian في وادي كوبان يقاوم الخزر، إلى

---

(١) عن الآفار، انظر : اسمت غنيم، الآفار، الإسكندرية، ١٩٩١م، ص١٥ وما يليها.

(2) Nicephorius, Breviarium. Rerum Post Mauricium Gestarum, I, p.27; Miracula St. Demetrii, Liber II, in Patrologia Graecae, T. 161, Paris, 1864, p. 136; Gerard, les Bulgares, p.8 stq, Ostrogorsky, the Byzantine, p. 16; Charanis, " Ecthnic Changes in The Byzantin Empire in Seventh Century ", In Dumbarton Oaks Papers, vol. 13, (1959), p. 38.

(٣) توفى كوبراتوس وترك خمسة أبناء، هم : بايان واسباروخ، وكونتراج، وكوبر، ويدعى الخامس Altzeko. لمزيد من التفاصيل حول انقسام مملكة البلغار الكبرى بين أبناء كوبراتوس، انظر :

Nicephorius, Breviarium, pp. 38–39; Runciman, A History of the First, pp. 3, 18–20, 25; Gerard, les Bulgares, pp. 49, 50.

أن سقط في أيديهم، وأصبح تابعًا لهم، وأسس دولة بلغاريا السوداء عند التقاء نهري قاما والفولجا، لذلك عرفت دولته كذلك باسم " بلغار الفولجا "، وهي التي اعتنق شعبها الإسلام.

أما الابن الثاني لكوبراتوس فهو اسباروخ Asparuch، وقد رحل على رأس مجموعة أخرى من البلغار نحو الغرب، ووصل حوالي عام ٦٧٠م إلى دلتا الدانوب، ونجح في عبور النهر، ثم توجه نحو الإقليم الشمالي الشرقي من البلقان، الذي يعرف حاليًا باسم " دوبروجا Dobroudja "، حيث شرع في إقامة دولة بلغارية أخرى في ممتلكات بيزنطية في البلقان[1]. وسارت هذه الدولة في فلك بيزنطة، واعتنقت المسيحية على مذهبها.

وعلى هذا النحو فقد أسس البلغار دولتين، أحدهما على نهر الفولجا، واعتنق شعبها الإسلام، والأخرى على نهر الدانوب واعتنق شعبها المسيحية، وعاشوا بجوار الإمبراطورية البيزنطية، وتأثروا بها، ويهم موضوع هذه الدراسة في المقام الأول دولة بلغار الفولجا لأنها اعتنقت الإسلام وعاشت على ضفاف نهر الفولجا.

حددت المصادر العربية المكان الذي استقر فيه بلغار الفولجا فيذكر ابن رسته " وهم نزل على حافة النهر، الذي يصب في بحر الخزر والمسمى أتل "[2]. وذكر الحميري " ومنازلهم على شاطئ أتل (أي الفولجا) "[3]. أما عن حدود دولة بلغار الفولجا، فقد حددها تحديدًا دقيقًا " الرمزي " صاحب كتاب " تلفيق الأخبار

---

(1) Nicephorius, Breviarium, pp. 38-39, Dvornik, Les Slaves, p. 9; Obolensky, Les Byzantines Commonwealth Eastern Europe 500-1453, London 1971, p.63; Lemerle, " Invasions et Migrations dans les Balkans ", dans Revue Historique 1954, p. 304.

(٢) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٣١.

(٣) الحميري، الروض المعطار، ص٨٨.

وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار "، وهو من سكان المنطقة القريبة من بلغار الفولجا ومن المهتمين بتاريخهم، فذكر : " كانت حدودهم خلال أغلب الأحيان من الشرق جبال أورال ونهره، وغربًا تمتد بلادهم إلى ملتقى أوكا وفولغا (الفولجا) .. وكانوا شمالاً من مملكة الخزر، وتمتد أراضيهم في وسط نهر الفولغا، وحول التقائه بنهر كاما ... "(١).

عاش البلغار في حوض الفولجا حياة مستقرة، وراحوا يمارسون الزراعة، فزرعوا أنوعًا مختلفة من الخضر والفاكهة والحبوب، إذ يذكر ياقوت الحموي : "والفواكه والخيرات بأرضهم لا تُنجب "(٢). ومارسوا حرفة الصناعة، فكانوا يصنعون الفراء، ويدبغون الجلود، ويصنعون منها الأحذية والنعال، كما مارس البلغار النشاط التجاري مع مختلف البلاد سواء أن كانت في الشرق أم في الجنوب أم في الغرب(٣).

واهتم بلغار الفولجا بتشييد المدن، ومن أهم المدن التي شيدوها، مدينة بلغار(٤) التي تقع عند ملتقى كاما مع نهر الفولجا ــ على بعد ستة كيلومترات من

---

(١) الرمزي، تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المجلد الأول، أوربنورغ ١٩٠٨م، ص٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة ١٩٠٦م، ج٢، ص٢٧٢.

(٣) أبرار كريم، من هم التتار ؟ ترجمة رشيدة رحيم، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣٩؛ وانظر أيضًا: أحمد محمود حسن عامر " تاريخ بلغار الفولجا المسلمين في شرق أوربا أبان العصور الوسطى " بحث منشور في مجلة التاريخ والمستقبل، جامعة المنيا، ٢٠٠٠م، ص٣٠٥-٣٠٦، ٣٠٩-٣١٠؛ وانظر فيما يتعلق بالنشاط التجاري في بلاد بلغار الفولجا ما يلي.

(٤) ولا تزال بعض آثار هذه المدينة وأطلالها باقية حتى اليوم على مقربة من ولاية قازان الروسية الحالية ــ على نحو ستة كيلو مترات من شاطئ الفولجا في خط يوازي مدينة موسكو، وقد زار هذه الآثار الشيخ محمود الداغستاني، وانشد فيها بيتًا بالتركية ترجم على النحو التالي " إن القلب يشتاق إلى مدينة بلغار شوقًا يقربها إلى أعيننا ... "، =

شرق الفولجا ــ والتي أصبحت قاعدة لحكمهم، ومركزًا تجاريًا لشرق أوروبا خلال القرن التاسع الميلادي[1]. وشيدو أيضًا مدينة سوار إلى الجنوب من مدينة بلغار، ومدينة سقسين إلى الشرق منها، وسوف تلقى هذه الدراسة مزيدًا من الضوء على الدور الذي لعبته هذه المدن في تاريخ الإسلام في حوض نهر الفولجا.

دخول بلغار الفولجا في الإسلام :

يرجع الفضل في دخول الإسلام إلى بلاد البلغار إلى اتصال بلغار الفولجا بالعالم الإسلامي ثقافيًا، وسياسيًا وتجاريًا، وخاصة اتصالهم بالولايات الإسلامية التابعة لكل من الخوارزمية والسامانيين. وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال الطريق الذي سلكته سفارة ابن فضلان إلى بلاد البلغار، فقد خرجت هذه السفارة من بغداد، وسارت إلى بخاري، ثم إلى خوارزم، ثم إلى بلاد البلغار[2]. ولو لم تكن صلة البلغار بهذه الولايات الإسلامية صلات قديمة، لكان الأولى أن تسلك سفارة

= انظر أمين واصف، الفهرست، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق أحمد زكي، مصر ١٩١٦م، ص٣٠؛ زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٠م، ص٢٦؛ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، ص٦٨؛ عبدالوهاب عزام، " البلغار المسلمون "، مجلة الثقافة، العدد ٢٦١ لسنة ١٩٤٣م، ص٢١٦٦.

(١) انظر : الأصطخري، مسالك، ص١٣٢، أبو الفدا، تقويم البلدان، باريس، ١٨٤٠م، ص٢١٦-٢١٧؛ الداقوقي، " دولة البلغار المسلمين في حوض الفولجا "، بحث منشور في مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد ٢١ لسنة ١٩٨٢م، ص٢٠٦-٢٠٧؛ وانظر ما يلي.

(٢) انظر ما يلي بشأن هذه السفارة.

ابن فضلان الطريق الأقصر إلى حوض الفولجا، وهو الطريق الذي يمر عبر قافقاسيا (القوقاز)[1].

كانت الصلات والعلاقات الثقافية والتجارية بين بلغار الفولجا وخوارزم – التي تقع على ضفتي نهر جيحون – علاقات قوية، لدرجة جعلت المؤرخين الروس يظنون أن هناك قرابة بين الخوارزميين والبلغار[2]. فخوارزم على الرغم من بعدها عن قلب العالم الإسلامي إلا أنها خضعت للتأثير العقلي الإسلامي، وكانت تتسم بنشاط ثقافي ممتاز يصوره المقدسي بقوله عن اهلها : " أنهم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وأقل أمام في الفقه، والأدب، والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي "[3]. وقد تأثرت مدينة بلغار – حاضرة بلغار الفولجا – بخوارزم، وحدث تفاعل ثقافي فعال بين المدينتين، حتى أمست مدينة بلغار من المدن المتقدمة في العلوم والمعارف بالنسبة لبلاد أوروبا الأخرى[4].

حدث احتكاك سياسي كذلك بين البلغار وخوارزم، فعلى الرغم من أن العلاقات بين البلغار والخوارزمية كانت سلمية، إلا أن المصادمات كانت تقع بينهم في بعض الأحيان، فيذكر ابن حوقل : " وغزوهم إياها والغارات عليهم وسبيهم"[5]. بل ويذهب البعض إلى القول بأن الخوارزمية سبق لهم أن كونوا مستوطنات لهم في بلاد البلغار[6].

---

(١) بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٨٣.

(٢) بارتولد، تاريخ الترك، ص٨٣.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٢٧.

(٤) الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٥) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٢.

(٦) الداقوقي، دولة البلغار المسلمين، ص٢٠٨.

وربطت العلاقات التجارية كذلك بين خوارزم وبلغار الفولجا، ويتضح ذلك من خلال الطرق التي سلكها التجار المسلمون، فقد كانت القوافل الكبيرة تنطلق من خوارزم على نهر جيحون قاصدة شواطئ الفولجا، وتصل إلى مدينة بلغار الواقعة عند ملتقى نهر الفولجا بنهر كاما كما يذكر موريس لومبار[1]. وقد أشار المسعودي إلى العلاقات التجارية التي ربطت بين خوارزم وبلغار الفولجا فذكر عند حديثه عن البلغار (البرغر) " هم نوع من الترك، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان، ومن خوارزم إليهم "[2]. وقد حدد كل من ابن حوقل والمقدسي أنواع التجارات وألوان السلع التي يتبادلها الطرفان فيذكر ابن حوقل : " وقد يخرج الخز والأوبار النفيسة إلى خوارزم لكثرة دخول الخوارزمية البلغار والصقالبة "[3]. أما المقدسي فقد عددَّ السلع المتبادلة بين خوارزم وبلاد البلغار فذكر منها : " الفراء والسنجاب والسمور والثعالب والفنك[4] وجلود الأرانب والماعز المدبوغة، وجلود الحمر الوحشية، والشمع والنشاب، والقلانس، وغراء السمك، وأسنان السمك، والعسل والبندق والسيوف والدروع والرقيق وغيرها "[5].

استمرت العلاقات التجارية تربط بين خوارزم وبلاد البلغار حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، عندما دخل أبو حامد الأندلسي

---

(١) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، الترجمة العربية، ص١٤٣؛ وانظر أيضًا : الداقوقي، دولة البلغار المسلمين، ص١١٩-١٢٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٣٣٢.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٥٤-٢٥٥.

(٥) الفنك نوع من الثعالب يمتاز بجودة فرائه.

الغرناطي خوارزم تاجرًا ثلاث مرات عن طريق بلاد البلغار وجنوب روسيا، ووصل إلى مصب نهر الفولجا ثم انحدر إلى خوارزم مارًا ببحر الخزر (قزوين)، وذكر أبوحامد الأندلسي : " توجد تحت الأرض أسنان مثل أنياب الفيلة بيض كالثلج .. تحمل إلى خوارزم، والقفل إلى القوافل متصلة من بلاد البلغار إلى خوارزم .. ويشتري من تلك الأسنان في خوارزم بثمن جيد "(١).

ومن المعروف أنه مع التجارة والتجار تنتشر الآراء والأفكار والمعتقدات لذلك كان للتجارة النشطة بين خوارزم وبلاد البلغار دور كبير في دخول الإسلام إلى بلاد البلغار عن طريق خوارزم هذا فضلاً عن الصلات السياسية والثقافية التي ربطت بينهما. ولم تكن الصلات التي ربطت خوارزم بالبلغار هي العامل الوحيد الذي ساهم في نشر الإسلام في بلاد البلغار بل هناك دور آخر لعبه السامانيون وتجارهم المسلمون في نشر الإسلام ورسوخه على أرض البلغار.

كان التجار المسلمون يتاجرون في الفراء والرقيق والعسل والخيول والعنبر والجلود وغيرها. وكان أحد طرق عبور تجارة الرقيق هو الطريق الذي يمر بمدينة بلغار، كما كانت بلغار نقطة تجمع منتجات الشمال، إذ كان يسهل على تجار الشمال الوصول إليها ببضائعهم. ومن ثم فقد جذبت إليها التجار المسلمون والعرب بقوة، وكان هؤلاء التجار يسعون للحصول على الفراء الذي يولع العرب باقتنائه(٢). ولم يكن التجار المسلمون في حاجة إلى المضي أبعد من بلغار، لأنهم

---

(١) أبو حامد الأندلسي الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، نشره فيران، باريس، ١٩٢٥م، ص٢٣٨.

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٢٥٥؛ وانظر أيضًا : هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، ج١، ص٧٧، ٨١؛ موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص٢٩٣.

كانوا يجدون فيها جميع منتجات الشمال وذلك بفضل نشاط البلغار. ومن ثم كانت مدينة بلغار هي الغاية القصوى للتجار المسلمين، ويؤكد ذلك عبارات كل من العمري والقلقشندي التي تذكر أن : " التجار لا يتعدون مدينة بلغار .. لأنها في أقصى الشمال، وليس بعدها عمار غير برج عظيم .. على هيئة المنارة العالية، وليس بعده مذهب إلا الظلمات "(١).

كان تجار بلغار الفولجا يقبلون من المسلمين سداد لقيمة بضائعهم دراهم بيضاء مستديرة إذ يذكر ابن رسته : " إنما يحمل الدراهم البيض المدورة من نواحي الإسلام يبتاعونها منهم "(٢). كما يذكر أن البلغار كانوا يأخذون العُشر من سفن المسلمين إذا جاءتهم للتجارة(٣).

وكان البلغار يتعاملون بهذه الدراهم الفضية التي تأتيهم من بلاد المسلمين، ويدفعونها ثمنًا للبضائع التي يستوردونها من بلاد الروس والصقالبة، أما فيما بينهم فكانوا يستعملون الدلق (وهو جلود السمور) والفراء في تلك الفترة الباكرة من تاريخهم، ولم تكن لهم نقود رنانة كالذهب والفضة، فيذكر ابن رسته(٤) : "واكثر أموالهم الدلق، وليست لهم أموال صامتة .. ويتروج الدلق الواحد بينهم بدرهمين ونصف ".

ولكن ما لبث أن أصبح لدى بلغار الفولجا دور لسك العملة في اشهر مدنهم

---

(١) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط مصور، ورقة ٩٤؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص٤٦٦.

(٢) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٣١.

(٣) ابن رسته، نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن رسته، نفس المصدر والصفحة.

ومنها بلغار وسوار يضربون فيها نقودهم الخاصــة، وذلــك نتيجــة لاحتكــاكهم بجيرانهم السامانيين وتأثرهم بهم، وقد أثبت فريهن وجود دور سك العملة هـذه في بلغار وسوار على قطعتين من النقود وجدتا في روسيا(١). وليس أدل على تأثر البلغار بالسامانيين من أن السامانيين حينما رفضوا الاعتراف بالخليفة العباسـي المطيع، ولم يكتبوا اسمه على العملة، وكتبوا اسم الخليفة السابق وهو المستكفي، حاكاهم البلغار فسكوا اسم هذا الخليفة على العملة المضـروبة فـي ذات الوقـت (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي)(٢).

كذلك كانت الدراهم السامانية هي العملة المتداولة لشراء مختلـف أنــواع السلع التي تمر بمدينة بلغار، وقد كشفت الحفريات عن كميات كبيرة من النقــود السامانية الفضية على طول نهر الفولجا ومجـراه الأعلــى والأســفل وروافــده الجنوبية، وكذلك في الأقاليم المجاورة لبحر البلطيق وخليج فلندا والسويد(٣).

اتضح من هذه النقود ما يلي :

أولاً : أن أكبر كمية من هذه النقود تحمل سنوات (٩٠٩-٩١٤م)، ثم أنهــا بدأت تقل تدريجيًا بداية من عام ٩٥٥م، وتنعدم تمامًا بعد العقد الأول من القـرن

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٧٩؛ وتجدر الإشارة إلى أن العملة التي سكها بلغار الفولجا مرت بعدة مراحل بداية من عهد الأمير البلغاري جعفر بـن عبـدالله (٢٨٩-٣١٠هـ/ ٩٠١-٩٢٢م) وحتى عهد الأمير مؤمن بن أحمد حاكم سوار. لمزيد من التفاصيل انظر : هانئ البشير " الدراهم الإسلامية في بلاد الروس " بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي " روسيا والعالم العربي والإسلامي "، آداب حلوان، عام ٢٠٠٢م، ص٩-١١.

(٢) بارتولد، الترك في آسيا الوسطى، ص٨٣-٨٤. Gerard, Bulgares, p.57.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٧٤-٧٥؛ موريس لومبار، الإسلام، ص٢٩٣؛ هانئ البشير الدراهم الإسلامية، ص٨.

الحادي عشر، وأخر تاريخ لها هو عام ١٠٨٠م[١].

ثانيًا : اتضح مما هو مكتوب على هذه القطع من النقود، أن أكثر من ثلثيها آتية من الدولة السامانية، التي حكمت فيما وراء النهر وخراسان منذ الربع الأخير من القرن التاسع وحتى نهاية القرن العاشر للميلاد[٢].

ثالثًا : اتضح من تلك النقود أن نقطة البداية لتجارة المسلمين مع بلاد بلغار الفولجا كانت سواحل بحر قزوين (أي بحر الخزر) حيث يجتمع تجار المراكز التجارية الكبرى كدمشق وبغداد وسمرقند وطهران وتفليس، ويسير هؤلاء التجار مع نهر الفولجا إلى مدينة بلغار مستودع التجارة بين آسيا وشمال أوربا[٣].

كذلك تم العثور على حلية كطقم فرس مموهة بالفضة، وجدت في ولاية باروسلاو، وكانت ملكًا لواحد من بلغار الفولجا، إذ قرأ عليها فريهن كلمتين عربيتين. هذا يعني أن التجارة التي كانت تجلب من الشرق مع النقود الفضية حليًا من فضة، أما بمثابة سلع أو أنها وسيلة من وسائل دفع الثمن[٤].

يتضح مما سبق أن حركة التجارة بين الدولة السامانية والبلغار كانت نشطة للغاية، وقد استغل السامانيون هذا النشاط التجاري في العمل على نشر الإسلام بين بلغار الفولجا، إذ انخرط العديد من العلماء ورجال الدين بين جموع القوافل التجارية، وتمكنوا بأسلوبهم الإيجابي وروح العقيدة السمحة من نشر

---

(١) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٧٦؛ لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص٥٦١؛ وانظر أيضًا : هانئ البشير، الدراهم الإسلامية، ملحق رقم ٤، ص٢٣.

(٢) لومبار، الإسلام في مجده الأول، ص٣٤٥.

(٣) لوبون، حضارة العرب، ص٥٥٩.

(٤) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص٨٢.

رسالة الإسلام بين قبائل بلغار الفولجا[١]. هذا إلى جانب الدور الذي لعبه التجار السامانيون أنفسهم، وخاصة تجار الفراء والرقيق في نقل الإسلام إلى بلغار الفولجا ومحاولة نشره على أرضهم.

لعب الخزر والمسلمون الذين عاشوا في بلادهم دورًا مؤثرًا كذلك إلى جانب دور الخوارزميين والسامانيين في دخول الإسلام وانتشاره بين بلغار الفولجا. إذ يرى البعض أن الصلات التجارية التي ربطت بين بلغار الفولجا والخزر أخذت تنمو وتتسع، وعن طريق هذه الاتصالات أخذ الدين الإسلامي ينتشر بين جماعة البلغار[٢]. وبحلول القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أصبح للإسلام أرضية صلبة في بلاد بلغار الفولجا، فعلى الرغم من اعتناق الخزر لليهودية إلا أن البلغار ظلوا على دينهم الإسلامي، وتمسكوا بأهدابه، رغم خضوعهم للخزر، وقيامهم بدفع إتاوات لهم من جلود السمور.

أما أبو حامد الأندلسي الغرناطي (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م) فيروي رواية أخرى عن سبب دخول البلغار في الإسلام فيذكر : " أن رجلاً صالحًا دخل بلغار، وكان ملكها وزوجته مريضين مأيوسين من الحياة، فقال لهما أن عالجتكما تدخلان ديني، قالا نعم، فعالجهما، فدخلا في دين الإسلام، وأسلم أهل تلك البلاد معهما، فسمع بذلك ملك الخزر، فغزاهم بجنود عظيمة فقال ذلك الرجل الصالح، لا تخافوا، وأحملوا عليهم، وقولوا الله أكبر، الله أكبر، ففعلوا ذلك، وهزموا ملك الخزر، ثم صالحهم ملك الخزر بعد ذلك، وقال : أني رأيت في عسكركم رجالاً

---

(١) أحمد محمود عامر " تاريخ بلغار الفولجا المسلمين في شرق أوربا "، بحث منشور في مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا، ٢٠٠٠م، ص٢٩٨.

(٢) حسين الداقوقي، دولة البلغار المسلمين، ص٢٠٦-٢٠٧.

كبارًا على خيل شهب يقتلون أصحابي، فقال الرجل الصالح : أولئك جند الله ". ويذكر أبو حامد الأندلسي أن اسم ذلك الرجل الصالح بلار، فعربوه وقالوا بلغار، وقد نقل أبو حامد الأندلسي روايته هذه عن القاضي البلغاري في تاريخ بلغار(١).

ويرى البعض أن الرجل الصالح الذي ذكره أبو حامد في روايته، كان تركيًا من دعاة الدولة السامانية، التي لعبت دورًا كبيرًا في دخول الإسلام وانتشاره في بلاد بلغار الفولجا، وبثت الدعاة إلى الإسلام في شتى المناطق المجاورة لها(٢).

وإذا كان أبو حامد الأندلسي ذكر السبب الذي دفع البلار أو البلغار لدخول الإسلام، فإن ياقوت الحموي يذكر " أنه لم يقف على السبب في إسلامهم "(٣). ومما لاشك فيه أن بساطة الإسلام وسهولته، ويسر عبادته، وسلامة مبادئه، كانت الدافع وراء إسلام البلغار وإسراعهم باعتناقه.

أما عن التحديد التاريخي لدخول البلغار في الإسلام واعتناقهم له، فلا يعرف على وجه التحديد، ولكن يبدو أن الإسلام دخل بلاد البلغار في أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، قبل أن يرسل إليهم الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م)(٤) رسوله ليقوم بتثبيتهم على الدين، وتعليمهم مبادئ

---

(١) أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب، نشر فيران، باريس، ١٩٢٥م، ص٢٣٧؛ وانظر أيضًا : الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٢٦٩؛ والقزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٦١٢-٦١٣.

(٢) أحمد فؤاد، الإسلام والثقافة، ص١٣٨.

(٣) معجم البلدان، ج٢، ص٢٧٢، طبعة ١٩٠٦م.

(٤) عن المقتدر انظر : ابن الساعي، تاريخ الخلفاء العباسيين، قدم له وأعد فهارسه عبدالرحيم يوسف، القاهرة، ١٩٩٣م، ص٩٣-٩٩؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٧٥م، ص٦٠٤-٦١٥.

الإسلام وشعائره، فيذكر ابن رسته ــ الذي شرع في تــأليف كتابــه فــي عــام ٢٩١هــ/٩٠٣م ــ عن ملك البلغار : " وملكهم يُسمى المُش، وهــو ينتحــل الإسلام"[١]. ويذكر في موضع آخر : " وأكثرهم ينتحلون ديــن الإســلام، وفــي محالهم مساجد وكتاتيب، ولهم مؤذنون وأئمة .. وملابســهم شــبيهة بملابــس المسلمين، ولهم مقابر مثل مقابر المسلمين "[٢].

يتضح من عبارات ابن رسته، أن الإسلام كان قد دخل بــلاد البلغــار حقّــا أواخر القرن الثالث الهجري، وفي عهد ملكهم المُش، ولكن لم تتعمق جذوره بعد في أرضهم، فقد كان في بدايته الأولى، يظهر ذلك من خلال عبارات ابــن رســته (ينتحل، وينتحلون الإسلام) ولفظة (شبيه ومثل) التي وردت فــي حديثــه عــن البلغار.

هذا ويُجمع عدد من المصادر العربية على أن دخول البلغار الإسلام تم فــي عهد الخليفة المقتدر، ومنها المسعودي الذي يذكر : " إن ملك البرغــر .. مســلم أسلم في أيام المقتدر بالله، وذلك لرؤيا رآها "[٣]. غير أن المسعودي لــم يفســر لهذه الرؤية التي رآها ملك البلغار، والتي دفعته إلى الدخول في الإسلام، كما أنه يقصد بكلمة في أيام المقتدر، تلك البعثة أو السفارة التي خرج فيها ابن فضلان[٤]

---

(١) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٣١.

(٢) ابن رسته، نفس المصدر والصحفة؛ وانظــر أيضًــا : الكرديــزي، زيــن الأخبــار، ج٢، ص٤٦٧-٤٦٨، وقد نقل رواية ابن رسته مع اختلاف طفيف.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١.

(٤) هو أحمد بن فضلان العباسي بن راشد، كان مولى لأحد الخلفاء العباسيين، وللقائد محمــد بن سليمان الكاتب، الذي هزم الدولة الطولونية، وأعاد مصر إلى حوزة العباســيين ســنة ٢٩٢هــ/٩٠٥م.

إليهم، كذلك يذكر ياقوت الحموي : " وكان ملك البلغار وأهلها قد أسلموا في أيام المقتدر بالله، وأرسلوا إلى بغداد رسولاً يعرفون المقتدر ذلك، ويسألوه إيفاد من يعلمهم الصلوات والشرائع "[١]. ويذكر أبو طالب الدمشقي[٢]، نفس ما ذكره كل من المسعودي وياقوت.

والقول الفصل هو ما جاء في رواية ابن فضلان سفير الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد البلغار، نزولاً على طلب ملكهم، ورغبة أهلها في التفقه في أمور دينهم.

بعثة ابن فضلان إلى بلاد البلغار:

خرج ابن فضلان من بغداد في عام (٣٠٩-٣١٠هـ/٩٢١-٩٢٢م) متوجهًا إلى بلاد البلغار، ويذكر ابن فضلان في روايته : " أن ملكيهم المش بن يلطور[٣] طلب إلى أمير المؤمنين المقتدر بالله أن يرسل بعثة من قبله، تفقهه في الدين، وتعرفه شرائع الإسلام، وتبني له مسجدًا، وتنصب له منبرًا يقيم عليه الدعوة للخليفة في جميع مملكته، وسأله إلى ذلك أن يبني له حصنًا يتحصن فيه من الملوك المخالفين له "[٤]. وذكر ابن فضلان في موضع آخر على لسان ملك

---

(١) معجم البلدان، ج٢، ص٢٧٢.

(٢) الدمشقي، نخبة الدهر، ص٣٤٧.

(٣) غير معروف إذا كانت كلمة يلطور هي اسم أبيه أم هي لقب الملك أو لقب الأسرة، وأقدم من صرح بأن الكلمة تعني لقب لملك البلغار هو عوفي، وقد ذكر المروزي في كتابه "طبائع الحيوان"، ويلقب ملك بلغار بطلطو، ص٢٣. ولمزيد من التفاصيل انظر : دائرة المعارف الإسلامية، ج٤، ص٩٥.

(٤) ابن فضلان الرسالة، ص٦٧-٦٨. ويقصد بالمخالفين هنا ملوك الخزر، وكانوا يعتدون على قومه، ويفرضون عليهم الضرائب.

البلغار " حتى أبني حصنًا يمنعني من اليهود الذين استعبدوني "[١] ويقصد باليهود هنا الخزر. ويوضح ابن فضلان في موضوع ثالث نوعية الاستعباد والظلم الذي نزل به من قبل هؤلاء الخزر فيذكر : " أن ابن ملك الصقالبة (يقصد البلغار) كان رهينة عند ملك الخزر .. وإنه اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال، فوجه يخطبها، فاحتج عليه ورده، فبعث وأخذها غصبًا، وهو يهودي وهي مسلمة، فماتت عنده، فوجه يطلب بنتًا له أخرى، فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر فزوجها لملك أسكل .. خيفة أن يغتصبه أياها، كما فعل بأختها. وكاتب ملك الصقالبة (البلغار) السلطان (أي الخليفة) وسأله أن يبني له حصنًا خوفًا من ملك الخزر "[٢].

يتضح من رواية ابن فضلان ما يلي :

أولاً : أن بلاد البلغار عرفت الإسلام قبل عصر الخليفة المقتدر بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) متفقة في ذلك مع رواية ابن رسته، وعرفته في عهد ملك البلغار المش الذي أرسل سفارته إلى الخليفة المقتدر، وهناك العديد من الدلائل على ذلك في رواية ابن فضلان سوف نسوقها في موضوعها[٣].

ثانيًا : أن سفارة ملك البلغار إلى بلاط الخليفة المقتدر كانت ذات أهداف دينية وسياسية معًا. أما عن الأهداف الدينية فكانت تتمثل في إرسال العلماء والفقهاء، ليعرفوهم بشرائع الإسلام، ويفقهوهم في أمور الدين، وإرسال المهندسين ليبنوا لهم مسجدًا يقيمون عليه الدعوة للخليفة العباسي في جميع أنحاء مملكة البلغار. أما الأهداف

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٩.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١٤٥.

(٣) انظر ما يلي، ص

السياسية فهي تكوين حلف مع الخلافة العباسية ضد الخزر أعداء البلغار، الذين يدينون باليهودية، ويفرضون عليهم الضرائب، ويغتصبون نساءهم، وطلب مساعدة الخلافة العباسية لهم في بناء حصن أو قلعة يحتمي فيها البلغار من ملك الخزر.

ثالثًا : توضح رواية ابن فضلان مدى هيبة الخلافة العباسية عند البلغار، ومكانة الخليفة لدى ملوك أوربا، إذ يستنجد به ملك مملكة واسعة الأطراف، ويسعى لإقامة حلف ديني، ثقافي، عسكري معه.

رابعًا : طلب ملك البلغار من الخليفة العباسي أن يبني له الحصن بمال من عنده، وتعجب ابن فضلان من طلب ملك البلغار هذا، خاصة بعد أن أقام في بلاده، ووجد أن مملكته واسعة، وأمواله جمة، وخراجه كثير، فسأل ملك البلغار، لماذا لا يبني الحصن من ماله الخاص فأجابه : " رأيت دولة الإسلام مقبلة، وأموالهم يؤخذ من جلها، فالتمست ذلك لهذه الصلة، ولو أني أردت أن أبني حصنًا من أموالي من فضة أو ذهب لم تعذر ذلك عليَّ، وإنما تبركت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك "(١).

أما عن الرسول الذي حمل رسالة ملك البلغار فهو " عبدالله بن باشتو الخزري "، ومن الغريب أن يكون هذا الرسول من الخزر ولعلهم أختاروه لمعرفته باللغة العربية أو لثقتهم به وبحسن إسلامه(٢).

قرر الخليفة ووزيره حامد بن العباس أن يرسلا وفدًا رفيع المستوى إلى ملك البلغار، يتألف من أربعة أشخاص هم : سوسن الرسي مولى نذير الحرمي(٣)،

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١٤٦.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص٩٩؛ وانظر أيضًا، ص٢٣.

(٣) وقيل سوسن الروسي، فقد كان يعرف الروسية، وقيل أنه ينتسب إلى بلاد الروس، وأنه استجلب منها كرقيق، ثم تعلم العربية، وحسن إسلامه، وأصبح حاجبًا للخليفة المكتفي، انظر مقدمة ابن فضلان، ص٢٤. -

وتكين التركي[١]،و بارس الصقلابي[٢]، وأحمد بن فضلان. ويحدد ابن فضلان دوره في هذه السفارة فيقول : " ندبت لقراءة كتاب الخليفة، وتسليم ما أهدى إليه (أي لملك البلغار) والإشراف على الفقهاء والمعلمين "[٣].

وقد صحب وفد الخليفة رسول ملك البلغار، كذلك فقيه ومعلم وغلمان، لم يذكر ابن فضلان أسماءهم، واكتفى بأن ذكر في معرض حديثه : " وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان، الذين خرجوا معنا من مدينة السلام "[٤].

وقد خصص الخليفة المقتدر لبناء القلعة التي طلبها البلغار، وللنفقة على الفقهاء والمعلمين ـ خراج الضيعة المعروفة " بأرثخشمثين "[٥] من أرض خوارزم، وهي من ضياع ابن الفرات[٦]. كما يذكر ابن فضلان[٧]. والحقيقة أن هناك أسبابًا قومية دفعت الخليفة العباسي المقتدر إلى الموافقة على الطلب المقدم من ملك البلغار من بينها :

---

(١) وهو تركي، ويجيد لغات الأتراك التي يمر بها وفد الخليفة إلى بلاد البلغار في طريقه إلى الفولجا.
(٢) اسمه يدل على أصله، وهو غلام إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان، وهرب من مولاه، وقدم إلى العراق في عهد الخليفة المقتدر؛ انظر ابن فضلان، المقدمة، ص ٢٤.
(٣) ابن فضلان، الرسالة، ص٦٨.
(٤) ابن فضلان، الرسالة، ص٨٧.
(٥) ارتخشمثين مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة، وهي من أعمال خوارزم.
(٦) ابن الفرات هو وزير الخليفة العباسي المقتدر، وكان من أجل الناس وأعظمهم كرمًا، ثم قبض عليه المقتدر وصادر أملاكه وضياعه، ومن بينها الضيعة التي ذكرت في نص ابن فضلان، فقد جعل الخليفة المقتدر ريعها جراية للبعثة. لمزيد من التفاصيل، انظر : ابن فضلان، الرسالة، ص٧٣-١١٠.
(٧) ابن فضلان، الرسالة، ص٦٨.

أولاً : كان من مصلحة الخلافة العباسية في ذلك الحين، أن تمد نفوذها في بلاد الترك، التي تجاور الدولة الإسلامية، خاصة تلك البقعة التي انتشر فيها الغز على طول الطريق بين خوارزم والفولجا، فإذا كانت علاقتها حسنة مع البلغار تسنى لها ذلك بسهولة ويسر، خاصة وأن البلغار كانوا من أصل تركي – كما سبق أن ذكرنا – وأبناء عمومة للغز وحلفاء لهم في صراعهم ضد الخزر.

ثانيًا : تستطيع الخلافة العباسية بمحالفة البلغار أن تواجه الصراعات وحركات التمرد والعصيان، التي بدأت تظهر في أجزاء متفرقة من أرض الخلافة، وخاصة من جانب الفرس، وكان الصراع معهم خلال أعوام (٣١٦-٣١٩هـ/ ٩٢٨-٩٣١م) سوف يؤدي إلى سقوط الخلافة، هذا فضلاً عن الدسائس والمؤامرات التي قام بها العلويون في طبرستان[١].

ثالثًا : كان الخليفة يتطلع إلى نشر الإسلام على نطاق واسع بين البلغار وحلفائهم الغز بل ودعوة سائر القبائل التركية – التي تقع ديارها بين إقليم ما وراء النهر والقوقاز وبلغار وحوض نهر الفولجا (أتل) – إلى الإسلام، إلى جانب استطلاع الأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية لشعوب الترك في وسط آسيا التي تأخر دخولها في الإسلام، كذلك استطلاع أحوال شعوب الصقالبة المجاورة لملك البلغار والمحيطة به – الذي سمته رسالة ابن فضلان – بملك الصقالبة لخضوعهم لسلطانه ودخولهم في طاعته[٢].

رابعًا : أمل الخليفة بالتحالف مع البلغار الوقوف في وجه العدو المشترك وهو الخزر، والقضاء على العلويين في طبرستان إذ كانوا يقفون حاجزًا في

(١) انظر : Canard, La Relation du Voyage d'Ibn Fadlan, p, 46

(٢) انظر أحمد فؤاد، الإسلام والثقافة، ص١٣٣-١٣٤.

طريق التجارة إلى بلاد الشمال، فضلاً عما يترتب على هذا التحالف من تقوية نفوذ الخلافة العباسية، وتأثيرها على السامانيين في الأقاليم التي تدعو للشيعة العلويين، كما أنه سوف يساعد على ارتفاع مكانة الخليفة، وازدياد نفوذه في نظر أتباعه، بل وفي نظر الذين لم يعترفوا بسلطانه بعد[1].

وعلى هذا فقد التقت مصالح البلغار مع مصالح الخلافة العباسية، لذلك أسرع الخليفة المقتدر بتلبية طلبات ملك البلغار، وأرسل سفارة ابن فضلان من أجل هذا الغرض. خرجت السفارة من بغداد يوم الخميس لأحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمائة (٣٠٩هـ/ ٢١ يونيه ٩٢١م) ومرت في طريقها بهمذان والري ونيسابور، ومرو وبخاري[2] حاضرة السامانيين، وفيها التقى ابن فضلان بالجيهاني وزير السامانيين، والعالم والجغرافي الشهير صاحب كتاب "المسالك والممالك" وكان الجيهاني وزيرًا لنصر بن أحمد الساماني (٢٧٩-٢٩٥هـ)[3]. ثم انطلقت السفارة إلى خوارزم والجرجانية ومنها إلى بلاد البلغار[4].

ويذكر ابن فضلان أن البعثة وصلت عاصمة بلاد البلغار على نهر الفولجا (أتل) في ١٢ محرم سنة ٣١٠هـ/١٢ مايو ٩٢٢م، وما أن وصلوا إليها حتى كان في شرف استقبالهم الملوك الأربعة الذين كانوا تحت يد ملكها وأخوته وأولاده، واستقبالهم ومعهم الخبز واللحم والجاروس[5]. وساروا معًا، فلما صرنا

(1) Canard, La Relation du Voyage d'Ibn Fadlan, pp. 46–47.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص٧٣-٧٦.

(٣) عن الجيهاني، انظر ابن فضلان، الرسالة، ص٧٦، هامش ٤.

(٤) لمزيد من التفاصيل انظر ابن فضلان، الرسالة، ص٨٠-٨٨، ١١٠.

(٥) حب معروف يؤكل وهو أشبه بحب البرسيم، وهو ثلاثة أصناف أجودها الأصفر وهو يشبه الأرز، والغالب أن يكون سعره قياس سعر القمح، وهو يدر البول ويمسك الطبيعة. انظر: العمري، مسالك الأبصار، ص٩٥؛ ابن فضلان، الرسالة، ص٨٦، هامش ٣.

منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل وخر ساجدًا شــكرًا لله ــ عــز وجل ــ وكان في كمه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قبابًا فنزلناها .. وأقمنا في القباب التي ضربت لنا .. حتى جمع الملوك والقواد وأهل بلده، ليسـمعوا قـراءة كتاب الخليفة[١]. وقرأ عليهم ابن فضلان الكتاب وهم وقوف بعد أن قال لهم " أنه لا يجوز أن نجلس والكتاب يقرأ ". وبعد أن أتم ابن فضلان قراءة الكتاب علـيهم "كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض". كما يذكر ابن فضلان[٢].

وأخرج ابن فضلان الهدايا بعد ذلك وقدمها لملك البلغار وكانت تحتوي على الطيب والثياب واللؤلؤ له ولأمرائه، ثم خلع ابن فضلان على إمرأة ملك البلغـار بحضرة الناس، وكانت جالسة إلى جواره، وكانت هذه سنتهم كمـا يـروي ابـن فضلان[٣].

وأتم ملك البلغار بعد ذلك مراسيم استقبال بعثة الخليفة بـأن دعـاهم إلـى قصره، وهنا يذكر ابن فضلان فدخلت عليه، وهو يجلس علـى سـرير مغشـى بالديباج الرومي، وعن يمينه الملوك، وأجلس وفد الخليفة على يسـاره، وأولاده جلوس بين يديه، ودعاهم للطعام والشراب، وكان الشراب من العسـل، وبعـد أن انتهى من الشراب قال : " هذا سروري بمولاى أمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ وفعلها ثلاث مرات " كما يذكر ابن فضلان[٤]. ثم انصرف وفـد الخليفـة وبـذلك انتهت مراسم استقبال الوفد الخليفي.

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٣.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٤.

(٣) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٥

(٤) لمزيد من التفاصيل، انظر : ابن فضلان، الرسالة، ص١١٦-١١٧.

يتضح من مراسم الاستقبال التي فصل لها ابن فضلان أن البلغار كانوا يعرفون الإسلام حقًا قبل وصول سفارة الخليفة المقتدر إليهم، وأنه قد دخل بلادهم قبل مجيئها، ويظهر ذلك من خلال العرض لمراسم استقبال الوفد الخليفي، إذ يذكر ابن فضلان أن ملك البلغار عندما رأى وفد الخليفة خر ساجدًا شاكرًا لله عز وجل، وعندما قرأ عليهم كتاب الخليفة " كبروا تكبيرة ارتجت لها الأرض "، كما أن ملك البلغار كان يدين بالولاء للخليفة العباسي ـ خليفة المسلمين ـ كما اتضح من عبارته التي كررها ثلاث مرات عقب الانتهاء من الشراب وجاء فيها " هذا سروري بمولاى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه " ولو لم يدرك ملك البلغار، أن الخليفة العباسي هو خليفة العالم الإسلامي كله، لما أرسل إليه يطلب عونه ومساعدته سياسيًا ودينيًا.

ويسوق ابن فضلان الأدلة الواحد بعد الآخر على اعتناق البلغار للإسلام قبل وصول وفد الخليفة إليهم، فيذكر أن اسم الملك كان يذكر في الخطبة بقوله : "وكان يخطب له (أي لملك البلغار) على منبره قبل قدومي : اللهم أصلح الملك يلطور ملك بلغار "[١]. وكان من العادة في الخطب عند المسلمين أن يقال على المنابر نفس العبارات : " اللهم، وأصلح عبدك وخليفتك فلان .. "[٢] والخلاف هنا الذي أثار ابن فضلان إنه كان يذكر ملك البلغار في الخطبة " بالملك يلطور " وحاول ابن فضلان علاج ذلك الأمر قائلاً لملك البلغار : " إن الله هو الملك " ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال له على منابره في الشرق والغرب : " اللهم أصلح عبدك

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٧.

(٢) الصابئ، رسوم دار الخلافة، تحقيق وتعليق ونشر، ميخائيل عواد، بغداد، ١٩٦٤م، ص١٣٣.

وخليفتك جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين "[1]. ومنذ ذلك الحين تسمى ملك البلغار باسم المقتدر، وأصبح يخطب له : "اللهم، وأصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين"[2]. وضرب ملك البلغار في ذات الوقت عام (٣١٠هـ/٩٢٢م) عملة جديدة، نقش عليها اسمه الجديد وهو جعفر بن عبدالله مولى أمير المؤمنين[3].

ويتضح من عبارات ابن فضلان أن ملك البلغار كان يدين بالتبعية لخليفة العالم الإسلامي وأمير المؤمنين، فقد كان مسلمًا قبل وصول ابن فضلان، وإن كان إسلامه وقومه ينقصه الكثير من العلم والمعرفة بأموره. كما كان ملك البلغار يخشى أمير المؤمنين ويخافه، رغم بعده عنه، ويحرص في ذات الوقت على اكتساب رضاه إذ جاء على لسانه : " فوالله .. إني لخائف من مولاى أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه، فيدعو عليَّ فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة "[4].

أخذ ابن فضلان على عاتقه إصلاح بعض الأمور الدينية في بلاد البلغار، فقد كان مؤذن الملك يُثني الإقامة إذا أذن، فقال له ابن فضلان : " أن مولاك أمير المؤمنين يُفرد في داره الإقامة ". فقال ملك البلغار للمؤذن : " اقبل ما يقوله لك ولا تخالفه "[5]. ومن ثم فقد لعب ابن فضلان دورًا أساسيًا في تفهيم البلغار بعض أمور الدين الإسلامي، خاصة فيما يتعلق بالآذان والإقامة، بل وحدث أن سأله ملك

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٧.
(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١١٨.
(٣) انظر : هانئ البشير، الدراهم الإسلامية، ص٩-١٠.
(٤) ابن فضلان، الرسالة، ص١٢٢.
(٥) ابن فضلان، الرسالة، ص١٢٠.

البلغار على لسان الترجمان عن بعض الأحكام الفقهية ومنها حكم الإسلام في مؤذنين أفرد أحدهما وثني الآخر، ثم صلى كل واحد منهما بقوم، اتجوز الصلاة أم لا، فرد ابن فضلان : " الصلاة جائزة، فقال باختلاف أم بإجماع ؟ قلت بالإجماع"(١).

رصد ابن فضلان بعض الظواهر الفلكية في بلاد البلغار خاصة التي تتعلق بمواقيت الصلاة، وتأدية صوم رمضان، وغيرها من العبادات ومنها قصر النهار وطول الليل في الشتاء، والعكس في الصيف، مما أدى إلى صعوبة تأدية الصلوات الخمس في أوقاتها الصحيحة، وكذلك صعوبات تتعلق بصوم شهر رمضان، وقد أشار ابن فضلان إلى ذلك فذكر أنه انتظر أذان العتمة (أي العشاء)، فإذا بالأذان، فخرج ليصلي وقد طلع الفجر فقال للمؤذن : " أي شيء أذنت " فقال : أذان الفجر، فسأله عن صلاة العشاء فقال له : نصليها مع المغرب، مما يظهر مدى قصر الليل في بلاد البلغار، وقد ذكر له المؤذن أنه منذ شهر ما نام خوفًا من أن تفوته صلاة الغداة (أي الصبح)(٢). ويشير ابن فضلان إلى قصر الليل عندهم أيضًا بقوله : " ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة، ثم يطلع الفجر، فيغيب القمر "(٣).

وقد ثار الجدل بين الفقهاء في وجوب صلاة العشاء على أهل بلغار لقصر

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١٢٠.

(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١٢٤-١٢٥.

(٣) انظر ابن فضلا، الرسالة، ص١٢٦-١٢٧. وقد رصد هذه الظواهر العديد من الرحالة الذين زاروا بلاد البلغار منهم : أبو حامد الأندلسي، تحفة الألباب، طبعة فيران، ص١١٧، ص٢٣٧؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٢١٧؛ ابن بطوطة، الرحلة، ص٢٢٥؛ ابن الوردي، خريدة العجائب، ص٨٣.

ليلهم، وكان هذا الجدل سبب شهرة هذه البلاد في الأقطار الإسلامية، فقد روى الشيخ العلامة نجم الدين محمود الزاهدي صاحب " القُنية في فقه الحنفية " أن شمس الأئمة الحلواني سُئل عن حكم صلاة العشاء في بلاد يطلع فيها الفجر قبل غياب الشفق في أقصر ليالي السنة، فأفتى بوجوب الصلاة. ثم جاء الاستفتاء إلى سيف السنة البقالي بخوارزم، فأفتى بأن العشاء غير واجبة، فأرسل الحلواني إلى البقالي من سأله في جامع خوارزم : ما تقول فيمن أسقط من الصلوات الخمس واحدة هل يكفر ؟ فلما سمع الشيخ السؤال عرف مقصود السائل فقال له : ما تقول فيمن قطعت يداه من المرفقين أو رجلاه من الكعبين، كم فرض وضوئه ؟ فقال ثلاثة، لفوات موضع الرابع، قال الشيخ : كذلك الصلاة الخامسة. وبلغ الحلواني جواب البقالي فاستحسنه، ووافقه على إسقاط صلاة العشاء في تلك البلاد(١).

وظلت هذه المسألة وغيرها مثار جدال، واختلفت فيها الآراء، وظل علماء المسلمين في تلك البلاد يكتبون الرسائل حول المسائل الشرعية ومسائل العبادات نظرًا لقصر الليل أو طوله في تلك البلاد(٢).

بذل ابن فضلان جهودًا كبيرة في نشر الإسلام بين شعب البلغار، فيذكر أنه أسلم على يديه رجل يقال له " طالوت " و سماه ابن فضلان " عبدالله " فقال له الرجل : أريد أن تسميني باسمك محمدًا، ففعل ابن فضلان، كذلك أسلمت معه زوجته وأمه

---

(١) انظر الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٢٩٦-٢٩٨؛ عبدالوهاب عزام، البلغار المسلمون، مجلة الثقافة، العدد ٦٢ لسنة ١٩٤٤م، ص١٥.

(٢) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ق١، ترجمة محمد زهير السمهوري، الكويت، ١٩٧٨م، ص١٧٩.

وأولاده، وعلمه ابن فضلان سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وكان الرجل فرحًا بهاتين السورتين أكثر من فرحه لو أصبح ملكًا للصقالبة، كما يروي ابن فضلان[١].

وتجدر الإشارة إلى أنه قد عاش في بلاد البلغار، جماعة من الخوارزمية الذين اعتنقوا الإسلام، وكانوا عاملاً من العوامل التي ساعدت على معرفة بلاد البلغار به إذ يذكر ابن فضلان : " إذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية، غسلوه غسل المسلمين، ثم حملوه على عجلة تجره .. حتى يصيروا إلى المكان الذي يدفنونه فيه .. "[٢].

كما أن رحيل عدد من الصناع والتجار من أهل بغداد إلى بلاد البلغار واستقرارهم فيها كان من العوامل الرئيسة في نشر الإسلام بين البلغار، وقد استرعى ذلك انتباه ابن فضلان فذكر أنه وجد خياطًا للملك من أهل بغداد في بلاد البلغار، وتحدث معه، واستقى منه بعض معلوماته عن مملكة البلغار وعن شعبها[٣]. بل أن الشعب البلغاري اعتاد أن يرتدي القلانس، وحاكوا بذلك العباسيين، الذين اعتادوا في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ارتداء القلانس بعد أن أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بلبسها[٤].

أثمرت بعثة ابن فضلان، ونجح الرجل في مهمته، وأدى رسالته وكان عند حُسن ظن المسئولين به، حينما اختاروه لهذه الوفادة الشاقة، وليس أدل على

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١٣٥.
(٢) ابن فضلان، الرسالة، ص١٤٣.
(٣) ابن فضلان، الرسالة، ١٢٤.
(٤) ابن فضلان، الرسالة، ص١٣١؛ ونظر : آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٩٣، دائرة المعارف الإسلامية، مادة بلغار، ج٤، ص٩٦.

نجاح ابن فضلان في مهمته من أن ملك البلغار نفسه راح يدعو القبائل والأقوام التابعة له إلى الإسلام، ومنهم ملك اسكل وقومه وكان في طاعته، إلا أنه لم يكن داخلاً في الإسلام، ويذكر ابن فضلان في هذا الصدد : " فبعث إليهم الملك وقال : أن الله ـ عز وجل ـ قد منَّ عليَّ بالإسلام، وبدولة أمير المؤمنين، فأنا عبده، وهذه الأمة قد قلدتني، فمن خالفني لقيته بالسيف "[١]. وأظهر ملك البلغار بذلك حماسة بالغة في سبيل نشر الإسلام، عبر عنها المسعودي بقوله : " والفارس ممن قد أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من الفرسان، والمائتين من الكفار "[٢]. وهكذا نجحت سفارة ابن فضلان دينيًا، وغدت بلاد البلغار ممثلة للإسلام في شرق أوربا، واعتبرت الثانية بعد الأندلس في أوربا دخولاً في الإسلام، وبذلك تحول حوض الفولجا الأوسط إلى قطر إسلامي، وتحول البلغار إلى دعاة متحمسين لنشر الإسلام عن طريق إرسال العلماء والفقهاء لدعوة من جاورهم من الشعوب والممالك إلى الإسلام وتفقيههم في أمور هذا الدين[٣].

حققت وفادة ابن فضلان نتائج طيبة في الجانب الديني منها ـ الذي تعني به هذه الدراسة ـ أما الجانب السياسي فلا يعرف إذا ما كان الخليفة المقتدر، قد حقق رغبة ملك البلغار في بناء حصن له أم لا ؟ إذ لم يشر ابن فضلان إلى ذلك، وهذا أمر طبيعي لأن ابن فضلان لم يعن بالجانب السياسي في هذه السفارة قدر عنايته بالجانب الديني، إذ كان هو المكلف بأن يلقن البلغار تعاليم الإسلام[٤].

---

(١) ابن فضلان، الرسالة، ص١٤٠-١٤١.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١، ص١٨٢.

(٣) الرمزي، تلفيق الأخبار، ص٢٦٢-٢٦٣؛ حسين الداقوقي، دولة البلغار المسلمين، ص٢٠٦-٢٠٧؛ أحمد فؤاد، الإسلام والثقافة، ص١٤٤.

(٤) بارتولد، الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ص٨٣.

استمر الإسلام يربط بين البلغار ومقر الخلافة العباسية ومركزها مدينة بغداد، حتى بعد نهاية وفادة ابن فضلان إليهم، فيروي المسعودي[١] أنه في عام ٣٣٢هـ أرسل ملك البلغار المسلم ولده للحج، وأنه نزل بمدينة السلام (أي بغداد) إذ حمل معه للخليفة المقتدر " لواء وبنود ومال "، وفي بغداد استقبل بحفاوة وتكريم بالغين من جانب الخليفة المقتدر، وقدم له باسم أبيه ملك البلغار فروض الطاعة والولاء، ويعلق جيرارد Gerard على هذه السفارة " بأنه كان لها أثر طيب في نفس أمير البلغار "[٢].

توفى ملك البلغار جعفر بن عبدالله، وخلفه ابنه وولي عهده الأمير أحمد، الذي ذكر المسعودي أنه حج وقدم بغداد، وقدم للخليفة المقتدر فروض الطاعة والولاء، وقد تم العثور على بعض المسكوكات التي تحمل اسم هذا الأمير البلغاري ومنها سكة فضية ضربت في مدينة سوار ــ وهي المدينة البلغارية الثانية بعد بلغار ــ في عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م، وعثر على أخرى في عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، كذلك ضربت عملة ثالثة باسم خليفته المأمون بن أحمد في عام ٣٦٣هـ/٩٧٤م، وكذلك عملة رابعة باسم " المأمون بن الحسن " أمير بلغار في عهد الخليفة العباسي الطائع، وقد ضربت في عام ٣٦٧هـ/٩٧٦م[٣]. ويتضح من هذه العملات أسماء أمراء البلغار وحكامهم حتى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، كما أنها تعكس مدى الرخاء الذي عاش فيه البلغار خلال تلك الفترة من

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص١٨١-١٨٢.

(2) Gerard, Les Bulgares de Volga, p. 58.

(3) Gerard, Les Bulgares de Volga, p. 58; Thomas, Noonan, " Monetary Circulation in Early Medieval Rus,: A Study of Volga Bulgar Dirham Finds " in Russian Histoire, 7, pt. 3 (1980), p.297-298.

جراء دخولهم في الإسلام فبفضل الإسلام أظهر البلغار نشاطًا كبيرًا في حوض الفولجا الأوسط، وكذلك على طول الطرق التجارية في الجنوب، وراحوا يتبادلون السلع والبضائع مع التجار المسلمين من العرب والفرس، وأصبحت بلادهم المركز الرئيس للعلاقات التي ربطت بين أوربا في الشمال وبين آسيا[1].

شهد عصر هؤلاء الأمراء انتشار الإسلام في بلاد البلغار على أوسع نطاق حتى شمل مدنهم الرئيسة، مثل بلغار وسوار، وبنيت بهما المساجد والجوامع، وكثر بهما عدد المسلمين، فيذكر الأصطخري (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) في كتاب المسالك والممالك وكان قد قام بزيارة لبلاد البلغار " بلغار اسم المدينة وهم مسلمون، وفيها مسجد جامع، ويقربهم مدينة أخرى تسمى سوار فيها أيضًا مسجد جامع "[2]. ويتابع الأصطخري فيذكر : " وأخبرني من مكان يخطب بهما أن عدد الناس بهاتين المدينتين نحو عشرة آلاف رجل "[3]. مما يدل على كثرة عدد المسلمين بهاتين المدينتين. وقد حدد المقدسي (ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م) مكان المسجد الجامع في مدينة بلغار فذكر : " والجامع في السوق "[4]. وهو بطبيعة الحال المسجد الجامع الذي تقام فيه صلوات الجمع والأعياد، أما المساجد والزوايا فقد شيد البلغار منها الكثير في مدنهم.

(1) Gerard, Les Bulgares de Volga, p. 59.

(٢) الأصطخري، المسالك والممالك، ص١٣١-١٣٢.

(٣) الأصطخري، المسالك، ص١٣٢.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٧٦.

دور البلغار في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية :

لم يقتصر نشاط البلغار في نشر الإسلام على بلادهم ومـدنهم بـل تطلـوا لنشره بين جيرانهم، فقد حدث في النصف الأول من القـرن الرابـع الهجـري / العاشر الميلادي تغيير في منطقة الفولجا حيث ظهرت قوة جديدة علـى مسـرح الحوادث هي قوة الروس[1]. وقد ربطت البلغار بالروس روابط قوية تتمثـل فـي رابطة الجوار والقرابة، وقد عبر ابن حوقل عن هذه الرابطة بقوله : " أن الروس ثلاثة أصناف صنف منهم أقرب إلى بلغار، وملكهم بمدينـة تسـمى كويابـه (أي كييف) وهي أكبر من بلغار "[2]. وحاول البلغار جـذب الـروس إلـى الإسـلام، وشجعهم على ذلك ما يرويه المروزي من أن الروس بعد أن تنصروا بمدة، مـا لبثوا أن رغبوا في التحول إلى الإسلام فيذكر : " أن الـروس لمـا دخلـوا فـي النصرانية، أغمد الدين سيوفهم، وأنسد دونهم باب الكسب، وعاد عليهم بالضـرر والإفلاس، وضاقت المعيشة عليهم فرغبوا في الإسلام، ليباح لهم الغزو والجهاد، وينتعشوا بالعود إلى ما كانوا عليه "[3].

ويفهم من الحوليات الروسية التي ترجع إلـى عـام (٣٧٥هـ/٩٨٥م) أن البلغار كانوا على صلة مع فلاديمير أمير كييف، الذي أبرم معهم معاهـدة صـداقة "من أجل أن يسود السلام بينهم حتى يطفو الحجر ويغوص القش " على حد تعبيـر

---

(١) عن الروس وأصلهم، انظر : ليلى عبدالجواد، تاريخ الروس من خلال المصادر العربيـة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٦ وما يليها.

(٢) ابن حوقل، المسالك والممالك، ص٢٨٥، صورة الأرض، ص٣٣٦.

(٣) المروزي، أبواب من الصين والترك والهند، من كتاب طبائع الحيوان، نشـره مينورسـكي بالعربية مع ترجمة وتعليق بالإنجليزية، لندن، ١٩٤٢م، ص٢٣.

كيستلر[1]. وفي العام التالي (٣٧٦هـ/٩٨٦م) أرسل البلغار إلى فلاديمير في كييف بعثة من أهل البلاد المسلمين كي يدعوه إلى الإسلام، ووصف له هؤلاء نعم الجنة ومباهجها حيث لكل رجل سبعون حورية، واستمع إليهم فلاديمير في استحسان، ولكن عندما أخبروه بضرورة الامتناع عن أكل لحم الخنزير، وعن شرب الخمر، قال لهم : " الخمر لذة الحياة عندنا نحن الروس، ولا معنى للحياة عندنا بغير هذه اللذة "[2]. ومع ذلك لم يندفع فلاديمير، وجمع زعماء الروس وسألهم عن رأيهم، فاقترحوا عليه أن يرسل رجالاً عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا له أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه السامي[3].

واختار فلاديمير عشرة رجال، اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي، وأرسلهم إلى مختلف البلاد، ليدرسوا أمور ديانتها، وقد ذهب هؤلاء إلى بلاد البلغار المسلمين وكتبوا عنهم قائلين : " رأينا كيف تكون صلاتهم في معبد يسمونه مسجد حيث يقفون صفًا صفًا، ثم يركعون ويسجدون ويجلسون حتى إذا انتهوا من الصلاة، تلفتوا يمنة ويسرة .. وصلاتهم جليلة وقورة، لا موسيقى فيها ولا إنشاد، ومساجدهم بسيطة لا زينة فيها .. "[4]. هذا في حين وجد أعضاء السفارة كنيسة القسطنطينية تزدان بأيقوناتها المقدسة، وزخارفها من الفسيفساء، وطيالس

(١) كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم، ص١٢٠.

(٢) كيستلر، القبلية الثالثة عشرة، ص١٢٠-١٢١.

(٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل البحراوي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٧٤؛ فشر، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ق٢، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٤٠٥-٤٠٦؛ باسيليوس خرباوي، تاريخ روسيا، نيويورك، ١٩١١م، ص٢٨-٢٩.

(٤) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٤؛ فشر، تاريخ أوربا، ج٢، ص٢٠٦.

الكيروسها (أي رجال الدين) الفاخرة، وطقوسها الجليلة مما جذبهم إليها، ودفـع فلاديمير إلى اعتناق المسيحية على مذهبها الأرثوذكسي[١].

وينهض ذلك دليلاً على سذاجة المبعوثين الروس، وعدم إدراكهم لكنه الدين الإسلامي، وأن الصلاة صلة بين العبد وربه، تجعله يتصل بربه مباشرة، ويقـف أمامه خاشعًا يرجو منه الهداية والرشاد والمعونة، لذلك اقتصـر فهمهـم علـى المرئيات المادية حينما استهوتهم مظاهر كنيسة القسطنطينية، وما حفلت به مـن أيقونات وزخارف، وأبهة ثياب القساوسة ورجال الدين بهـا، فاسـتولت علـى عقولهم ومشاعرهم[٢]. وعلى هذا فقد باءت محاولة بلغار الفولجا المسلمين إدخال فلاديمير في الإسلام بالفشل.

ومع ذلك لم ييأس البلغار واستمروا في محـاولتهم نشـر الإسـلام فيمـا جاورهم من بلاد ومنها بلاد المجر، فقد جاء في أقدم مصدر مجري كتبه مجهول ونشر في Gesta Hungarorum : أنه وصل حوالي منتصف القرن العاشـر الميلادي إلى بلاد المجر كل من بلا Billa وباكس Baks وهما من أعظم النبلاء في بلاد بلار (أي البلغار) مع عدد من الإسماعيلية (أي المسلمين) في عهد الأمير المجري تاكسوني Taksony (٩٤٧-٩٧٢م). وقد قاما بنشر الإسلام في بـلاد المجر[٣]. وقد أكد صحة هذه الرواية الجغرافي العربي ياقوت الحموي الذي التقى

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر : ليلى عبدالجواد، تاريخ الروس، ص٥٩، هامش ٣٦.

(٢) فشر، أوربا في العصور الوسطى، ج٢، ص٤٠٦، حاشية ١.

(٣) انظر النص باللاتينية مع ترجمة بالإنجليزية في :

Istvan Fodor, " Archaeological traces of the Volga Bulgars in Hungary of the Arpad Period ", in Acta Orientalia Hungariae (1979), pp. 315–316.

وانظر أيضًا : ليلى عبدالجواد، " المسلمون في بلاد المجر في العصور الوسطى "، بحـث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد السابع، يوليو ١٩٩١م، ص٤٤-٤٦.

بجماعة من المسلمين المجريين في حلب في عام ٦٢٤هـ/١٢٢٨م، وسأل واحد منهم عن سبب إسلامهم مع أنهم في وسط بلاد الكفر، فأجابه بقوله : " سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله والحمد لله فأسلمنا جميعًا، وشرح الله صدرنا للإيمان "(١). وهكذا تؤكد رواية ياقوت ما جاء في المصدر المجري من أن الإسلام دخل بلاد المجر على يد جماعة من البلغار قدموا إليها وسكنوها، وقاموا بنشر الإسلام بين أهلها.

وهكذا تحول بلغار الفولجا إلى دعاة متحمسين لنشر الإسلام بين الشعوب المجاورة لهم؛ وعلى نفس المذهب، ألا وهو المذهب الحنفي، فقد ذكر ياقوت أن المسلمين المجريين، الذين التقى بهم في حلب " كانوا يتفقهون على مذهب أبي حنيفة "(٢).

واستمرت دولة البلغار تؤدي دورها في خدمة الإسلام والمسلمين، وسعى حكامها إلى عمارة المساجد والنفقة عليها، ليس في بلاد البلغار وحدها، بل وفي بلدان العالم الإسلامي، فيذكر البيهقي المعروف بابن فندق (ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م) في كتابه " تاريخ بيهق " : " أن ملك البلغار ويدعى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ابن يلطوار أرسل في عام ٤١٥هـ مالاً إلى بيهق في نواحي نيسابور، لينفق على مسجد الجمعة في كل من سبزوار وخسروجرد، وعمارة هذين المسجدين، كما أرسل هدايا عجيبة إلى ملك خراسان، لم ير أحد مثلها " ويتابع البيهقي فيذكر

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، طبعة ليبسك، ١٨٦٦م، ص٤٦٩-٤٧٠.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٤٦٩.

"إنه تم إنفاق ذلك المال على عمارة هذين المسجدين في ذلك التاريخ "[١].

وظلت الصلة مستمرة كذلك بين بلاد البلغار وأهلها وبين الخلافة العباسية في بغداد، التي وفدت إليها جماعات من البلغار بأعداد كبيرة، وهي في طريقها إلى مكة لأداء فريضة الحج، فتحدث ابن الأثير في حوادث عام (٤٣٣هـ/١٠٤١م) عن وصول قافلة من الحجاج البلغار إلى بغداد أكرمت وفادتها، وذكر ابن الأثير حرفياً، "وفيها (أى سنة ٤٣٣ هـ) وصل جماعة من البلغار إلى بغداد يريدون الحج، فأقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة"[٢].

وقد زار بلاد البلغار ومنطقة حوض الفولجا فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى رحالة وعلماء مسلمون منهم عبدالله أبوحامد الأندلسى الغرناطى صاحب كتاب "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب". زارها فى عام ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م، وصحب قاضيها يعقوب بن النعمان، وذكر أن هذا القاضى ألف كتاباً فى تاريخ البلغار، ولكن لا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب[٣]. ورسم أبوحامد الأندلسى بقلمه صورة للإسلام فى حوض نهر الفولجا، وبدأ جولته فى المنطقة بزيارة مدينة سجسين (سقسين) فذكر: "وعليه (أى على نهر الفولجا) مدينة يقال لها سجسين، وفيها من الغز أربعون قبيلة، لكل قبيلة أمير على حدة... وفى المدينة من التجار الغرباء، وأولاد العرب من المغرب آلاف لا يحصى عددهم، وفيها جوامع يصلى فيها الجمعة ... وفى وسط البلدة أمير من أهل بلغار، ولهم جامع كبير يصلى فيه الجمعة، وحوله أمم من البلغاريين، وجامع آخر فيه أمة يقال لها

---

(١) البيهقي المعروف بابن فندق، تاريخ بيهق، باتصحيح وتعليقات أحمد بهنيار، ص٥٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٥٠٢.

(٣) عن لقاء أبى حامد مع القاضى يعقوب بن النعمان انظر، حسين مؤنس، الجغرافية، ص٣١٦، وانظر أيضاً زكى محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٥م، ، ص ٣١.

"صوار"(١) وهم أيضاً كثيرون، ويوم العيد يخرجون بمنابر كثيرة، يصلى كل أمير بأمم كثيرة"(٢). ويتابع أبوحامد الأندلسى فيذكر: " ولكل أمة قضاة، وفقهاء وخطباء، والجميع على مذهب أبى حنيفة، إلا أولاد المغاربة، فإنهم على مذهب مالك، والغرباء على المذهب الشافعى، ودارى الآن فيهم، وأمهات الأولاد وأولادى وبناتى"(٣).

يتضح من رواية أبى حامد الأندلسى :

أولاً : أن الإسلام انتشر فى المدن البلغارية وفى دلتا الفولجا انتشاراً واسعاً، وخاصاً فى سقسين الواقعة إلى الشرق من مدينة بلغار وفى مدينة بلاد وسوار أو صوار الواقعة إلى الجنوب منها، كما تزايدت أعداد المسلمين فى المنطقة بشكل كبير.

ثانياً : عاش فى بلاد البلغار آلاف لا يحصى عددها من المسلمين أولاد العرب والمغاربة. فضلاً عن التجار الغرباء من المسلمين كذلك. وأن مذهب البلغار كان مذهب أبى حنيفة، وهذا ما أكدته مصادر أخرى منها ابن الأثير حيث ذكر فى حوادث سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م "أنهم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه"(٤). كذلك ذكر أبوالفدا "وأهلها (أى أهل بلغار) مسلمون حنفية"(٥). هذا فى

---

(١) صوار أو سوار قبيل يسكن الضفة الشرقية لدلتا الفولجا، وينطق اسمهم أيضاً شواز، وجاء عند ابن فضلان صواز، وكانوا مجاورين ومصاهرين لبرطاس. انظر حسين مؤنس، الجغرافية، ص ٣١٥، هامش ٢. كما أن مدينة سوار كانت واحدة من أهم المدن البلغارية.

(٢) أبوحامد الأندلسى، تحفة الألباب، نشر دوبلر، ص ٥، وانظر أيضاً حسين مؤنس، الجغرافية، ص ٣١٥.

(٣) أبوحامد، تحفة ، نشر دوبلر، ص ٥، ٦.

(٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ٩، ص ٥٠٢.

(٥) أبوالفدا، تقويم البلدان، ص ٢١٧؛ وانظر ما سبق، ص٨١.

حين كان المغاربة المقيمون فى بلاد البلغار على مذهب الإمام مالك، وكان الغرباء من التجار على مذهب الإمام الشافعى.

ثالثاً : أقام أبو حامد الأندلسى فى المنطقة ثلاث سنوات، واتخذ أمهات أولاد، وأنجب بنين وبنات، والتقى بملك البلغار وقال عنه: "كان خيراً متواضعاً، كان إذا التقانى يسلم علىّ، ويرحب بى ويكرمنى"[١]. وارتبط أبوحامد ببلاد البلغار ارتباطاً وثيقاً، فلم يقتصر الأمر على أنه عاش بها وتزوج وأنجب البنين والبنات، بل لقد مات له فيها ولد، إذ يذكر فى معرض حديثه عن مدينة بلغار "ولقد مات لى بها ولد، وكان فى آخر الشتاء، فلم أقدر على دفنه فبقى فى البيت ثلاثة أشهر حتى أمكن دفنه، وبقى الميت كالحجر من شدة البرد"[٢].

وسرعان ما أمست مدينة بلغار عاصمة بلاد البلغار مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية، فقد حفظ التاريخ أخبار طائفة من العلماء والمشايخ نشأتهم بلغار، ومنهم القاضى يعقوب بن النعمان قاضى بلغار، الذى ألف تاريخاً بعنوان "تاريخ بلغار" ولكنه مفقود، ونقل عنه أبوحامد الأندلسى كما سبق أن ذكرنا[٣]. والشيخ برهان الدين إبراهيم بن يوسف البلغارى، وهو الذى شرح فصول النسفى فى علم الجدل، والشيخ محمد البلغارى وله كتاب بعنوان "خزينة العلماء وزينة الفقهاء"، وهو المختصر فى الموعظة، والقطب الكبير حسن صلاح الدين بن عمر البلغارى، وكان شيخاً كبيراً فى وقته وهو من مريدى الشيخ الصوفى الكبير نجم الدين الكبرا، صاحب الطريقة الكبراوية، وتنقل الشيخ حسن فى البلاد، والتقى بكبار

---

(١) انظر: حسين مؤنس، الجغرافية، ص ٣١٦، والرمزى، تلفيق الأخبار، جـ١، ص ٢٧٠.

(٢) أبوحامد الأندلسى، تحفة الألباب، نشر فيران، ص ١١٨، وانظر أيضاً حسين مؤنس، جغرافية، ص ٣١٨.

(٣) انظر ما سبق، ص٨٢-٨٣.

المشايخ، وجمع حوله المريدين والأتباع، وتوفى فى تبريز سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م[١]. ومن أشهر المفسرين البلغار أبوالعلاء حامد بن إدريس القاضى البلغارى، وقد ذكره الشيخ سليمان بن داود السقسينى فى كتابه المعنون "بزهرة الرياض" مع أسماء بعض المفسرين البلغار الآخرين[٢].

وهكذا أصبح من البلغار المشايخ والمفسرين والعلماء والقضاة، الذين اشتغلوا بعلوم الدين الإسلامى المختلفة، وساهموا فى نشر الثقافة الإسلامية فى أرجاء دولتهم، بل وفى البلاد المجاورة لهم.

بلغار الفولجا والغزو المغولي :

ما لبثت بلاد البلغار أن تعرضت لغزو المغول، ففى عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، هاجم جيش جنكيز خان بقيادة سيوبتاى بلاد البلغار لأول مرة، ولكنهم هزموا، وقد فصل ابن الأثير لهذا الهجوم، فذكر :" وقصدوا (أى المغول) بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم، كمنوا لهم فى عدة مواضع، وخرجوا إليهم فلقوهم، واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع انكمناء، فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم، فبقوا فى الوسط، وأخذهم السيف من كل ناحية، فقتل أكثرهم، ولم ينج منهم إلا القليل"[٣]. وبذلك نجح البلغار فى صد هجوم المغول،

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص ٣٢٧- ٣٢٩.
(٢) الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص ٣٢٤- ٣٢٥، وانظر حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، ج٢، ص ١٩٤٥.
(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج١٢، ص ٣٨٨، وانظر أيضاً النويرى، نهاية الإرب فى فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٢٣، وابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٥، ق٢، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٤٧، ١١٠٨.

وكبدوا قائدهم خسائر فادحة، وأنزلوا به هزيمة لم يتعرض لمثلها منذ خرج من منغوليا، وكان لهذا الانتصار أكبر الأثر فى ارتفاع شأو مملكة البلغار ومكانتها، وانخفاض معنويات المغول، وعزمهم على الانتقام حينما تحين الفرصة(١).

وحانت ساعة الانتقام عندما خلف أوكتاى (أوجتاى) أباه جنكيز خان على عرش المغول، فقد وضع أوكتاى برنامجاً يستهدف استكمال فتوحات أبيه، وأعد من أجل ذلك جيشاً عظيماً، وعهد إليه بفتح بلاد البلغار، بعد أن أسند قيادته العليا إلى ابن أخيه جوجى ويدعى باطو أو (باتو)، وقد شارك فى هذا الجيش سيوبتاى القائد المغولى السابق وذلك لمعرفته السابقة بجغرافية المنطقة وخبرته فى قتال البلغار، ورغبته الشديدة فى الانتقام منهم والثأر لهزيمته على أيديهم(٢).

واستهل هذا الجيش أعماله الحربية فى عام ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م بتدمير مملكة البلغار، والاستيلاء على حاضرتها مدينة بلغار قهراً وقسراً، وثأروا من الأهالى، وساقوهم أسرى، وعبرت حولية "توفاجورد Novogorod" عن هجوم المغول على مملكة البلغار إذ جاء فيها:" ان التتار الأشرار قد أتوا واستولوا على بلاد البلغار، وأخذوا مدينتهم الكبيرة وذبحوا كل السكان: رجالاً ونساءً وأطفالاً"(٣).

---

(١) أحمد محمود حسن عامر، تاريخ بلغار الفولجا المسلمين، ص ٣٥٤- ٣٥٥.

(٢) أنظر عطا ملك الجوينى، تاريخه جهانكشاى، مجلد أول، تصحيح محمد عبدالوهاب ليدن ١٩١١، ص ٢٢٢، ٢٢٤، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٨٦- ١٨٧؛ بارتولد شبولر، العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق، ١٩٨٢م، ص٣٥، ٣٦، الباز العرينى؛ المغول، بيروت، ١٩٨٦م، ص١٨٠؛ أبرار عبدالكريم، من هم التتار؟، ترجمة رشيدة رحيم، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٤١؛ أحمد محمود، تاريخ بلغار الفولجا، ص ٣٥٤- ٣٥٨؛ ابن العبرى، تاريخ الأزمنة، ترجمة اسحاق أرملة، بيروت ١٩٨٦، ص ٧٩.

(٣) نقلاً عن عادل إسماعيل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى، القاهرة ١٩٩٧، ص ٣٦.

وعجز ملك البلغار الهام خان عن مقاومتهم، لذلك أعلن فى عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م خضوعه للمغول، وعقد معهم صلحاً ينص على أن يعطوه جميع البلاد والأماكن، التى كانت تحت يده وتصرفه، وقبل المغول بشروط منها: أن يضرب السكة باسمهم، وأن تكون مملكة البلغار جزءاً من ممالكهم، وأميرها منسوب إليهم، وإن كانت تتمتع بالحكم الذاتى، فقد كان من حق البلغار أن يديروا أمورهم الداخلية بأنفسهم، ويختاروا ملوكهم، كذلك اشترط باتوا على أمير بلغار أن يزوده بالجند، ويكون معهم بجيشه فى قتال الروس. ولم يجد ملك البلغار مفراً من الموافقة على هذه الشروط. وبذلك سيطر المغول على منطقة وسط وجنوب الفولجا[1].

ولكن سيطرة المغول على جنوب ووسط نهر الفولجا ثم على شماله خاصة بعد أن سيطروا على الإمارات الروسية[2] ــ لم تعن أن المد الإسلامى توقف فى تلك المناطق ــ بل استمر إذ حمل الراية الإسلامية بعد البلغار مغول القفجاق أنفسهم، وتبنوا الدفاع عن الإسلام، وأصبحوا حماة له ودعاة له فى المنطقة.

---

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٣٠٦-٣٣٦؛ أحمد محمود، تاريخ بلغار الفولجا، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: عادل إسماعيل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا، ص٣٦-٤٠.

الفصل الثالث

الإسلام والمسلمون
في بـــلاد القفجاق (القبجاق)

- انتشـــار الإســـلام بـــين مغـــول القبجـــاق فـــي عهـــد بركـــة خـــان
- إسلام خانات مغول القبجـاق بعـد بركـة ودورهـم فـي جهـاد أعدائـه
- الإسلام في أوج عظمته في حوض الفولجا في عهد أوزبك (٧١٢-٧٤٢هـ/١٣١٣-١٣٤٢م)
- هجـــوم تيمورلنـــك علـــى دولـــة مغـــول القبجـــاق
- اســتيلاء الــروس علــى الخانيــات الإســلامية فــي حــوض الفولجــا

سكن حوض الفولجا كذلك شعب القبجاق أو القفجاق، وبدأ نجم هذا الشعب يتألق فى سماء حوض الفولجا بعد أن بدأ نجم بلغار الفولجا يخبو قليلاً. والقبجاق بفتح القاف وسكون الباء الموحد وفتح الجيم والألف بعدها قاف هم جنس من الترك، وهم أهل حل وترحال على عادة البدو كما يذكر القلقشندى[1]. ووصفهم التاجر جمال الدين بن عبدالله الحفصى فقال: "وهم من خيار الترك أجناساً لوفائهم وشجاعتهم، وتجنبهم الغدر، مع تمام قاماتهم وحسن صورهم، وطرافة شمائلهم"[2].

أما عن مساكنهم الأصلية فكانت حوض نهر ارتش المتاخم للحدود الغربية لبلاد منغوليا والصين، ثم تركوا هذه المنطقة واستقروا فى حوض نهر اتل (الفولجا) الأدنى، وفى الصحراء المعروفة باسم "الدشت" التى تمتد غرباً حتى نهر الفولجا والبحر الأسود، وشمالاً حتى تصل إلى جنوب روسيا ولذلك سميت باسم صحراء أو برية القفجاق أو دشت القبجاق حسبما نطقها الترك والفرس[3]. ونظراً لكثرة أعداد هذا الشعب وأهميته عن باقى الشعوب، التى سكنت هذه المنطقة

(١) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٤، طبعة دار الكتب، ص٤٥٦؛ وعن أصل كلمة القبجاق أو القفجاق، أنظر : بهيرة محمد غلاب، " مغول القبيلة الذهبية، فـي بـلاد القبجاق ٦٣٥- ٧٣٦هـ/ ١٢٤٦- ١٣٣٥م "، رسالة دكتوراه غير منشورة، آداب طنطـا، عام ٢٠٠٠، ص٣٢- ٣٣.

(٢) انظر القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٧- ٤٥٨.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٦.

الواسعة، لذا أصبح اسمه علماً عليها[١].

وأجمل العمرى ديانة القفجاق أو القبجاق بقوله:" هم قبائل كثيرة فيهم مسلمون وفيهم كفار"[٢]. فقد كانت غالبيتهم فى البداية وثنيين، كما إن فريق منهم كان يدين بالمسيحية، لتعرضه للتأثير المسيحى الوافد عليه من روسيا وبيزنطة وغرب أوربا. أما الفريق الثالث فكان يدين بالإسلام وذلك لتعرضه للتأثير القادم عليه من بلغار الفولجا المسلمين، إذ أن جزءاً من أراضى القبجاق، كان ضمن مساحة دولة بلغاريا العظمى[٣]. ولم تنقطع الصلة بين الشعبين بعد هجرة البلغار إلى ضفاف نهر الفولجا، لأنهما من فصيلة لغوية واحدة، وازدادت الصلات بينهما بطبيعة الحال بعد استقرار القبجاق فى حوض نهر الفولجا كذلك على مقربة من البلغار[٤].

تعرضت بلاد القفجاق كما تعرضت بلاد البلغار لغزو المغول فى عام ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م[٥] وعندما تمكن باتوا أو باطو بن جوجى حفيد جنكيز خان من إتمام غزوها، امتزج شعب القفجاق بالمغول امتزاجاً كبيراً، وصارت القبجاق لهم رعايا ثم خالطوهم وناسبوهم، وغلبت الأرض على الجبلة والأصل، فصار الكل

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢١٤؛ الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٢٠٦؛ بارتولد، الترك، ص١٣٢.

(٢) العمرى، مسالك الأبصار، مخطوط مصور، أصدره فؤاد سزكين، ألمانيا، ١٩٨٨م، ص٩٤.

(٣) عن دولة بلغاريا العظمى انظر ما سبق ص٥٠-٥٢.

(٤) انظر ابرار كريم الله، من هم التتار؟ ، ص٤٦.

(٥) عن غزو المغول لبلاد القفجاق انظر: النويرى، نهاية الإرب فى فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق سعيد عاشور، ص٣٢١، ٣٢٢؛ بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص٤٧.

كالقفجاق كأنهم جنس واحد كما يذكر العمرى[١] واستحال التمييز بينهم، بعد أن صاروا جنساً واحداً، وتحدثوا بلغتهم واندمجوا فيهم ودخلوا معهم فى الإسلام، واشتركوا فى الملك والسلطة حتى سميت دولة المغول هناك باسم " سلطنة القفجاق أو دولة القفجاق". فى حين أن مغول هذه السلطنة كانوا يعرفون باسم مغول القبيلة الذهبية Golden Honk نسبة إلى لون خيامهم الذهبى[٢].

وشرع باتو أو باطو فى بناء عاصمة لسلطنته على الجانب الشرقى لنهر اتل (الفولجا) بساحل يعرف باسم التل الأبيض عام ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م، وسماها سارى أو سراى (القصر)[٣]. ويروى الراهب روبروق أنه رأى أثناء عودته من منغوليا مدينة جديدة أسسها باطى على نهر ايتل (الفولجا) واسمها (سراى) ومر عليها بنفسه، وذكر أن قصر باطى ومدينة سراى يقعان على الضفة الشرقية للنهر[٤]. وبنى بركة بن جوجى أخو باطو سراي جديدة، عندما جلس على عرش

(١) العمرى، مسالك الأبصار، مخطوط مصور، ص٨٩.

(٢) هو اسم أطلقه عليهم الروس وترجمته فى الروسية (زولو تويا أورده) وفى الفارسية (التون أوردو) ، وهى تعرف فى المصادر الشرقية باسم دولة دشت قبجاق أى خانات صحراء القبجاق. لمزيد من التفاصيل انظر: بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص٤١، ٤٧، ٤٨؛ جمال فوزى محمد، "دولة مغول القبيلة الذهبية فى عهد أوزبك خان وجهودها فى نشر الإسلام ٧١٢- ٧٤٢هـ/ ١٣١٣- ١٣٤٢م". بحث منشور فى ندوة التاريخ الإسلامى، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد ١٥، ٢٠٠١م، ص٢٢٩.

(٣) كلمة سراى كلمة فارسية، أخذها الترك فى زمن مبكر، وكان المغول يطلقونها على مقام الخان، ثم اتسع معناها فأصبحت تطلق على المدن التى تنشأ حول السراى؛ وقد ثار جدل حول سراى الفولجا هل أسسها باتو أم بركة. انظر بارتولد، تاريخ الترك، ص١٨٩، ١٩٠؛ وانظر أيضاً الرمزى، تلفيق الأخبار، ج٢، ص٣٧٩.

(٤) نقلاً عن بارتولد، تاريخ الترك، ص١٨٨.

السلطنة، وظلت الأخيرة دار ملكهم حتى انقرضت دولتهم، ويؤكد ذلك ما ذكره العمرى نقلاً عن الفاضل شجاع الدين عبدالرحمن الخوارزمى الترجمان من أن "مدينة السراى بناها بركة قان على شط توران ... وبها قصر عظيم ..."(١).

وقد سميت بسراى الجديدة وسراى بركة، وكانت تجاور القديمة التى بناها باطو إذ كانت تقع على نهر الفولجا كذلك. واتخذت هذه المدينة طابعاً إسلامياً بل أصبحت بمثابة البوتقة التى انصهر فيها مغول القبجاق بثقافتهم وعاداتهم داخل الحضارة الإسلامية(٢).

انتشار الإسلام بين مغول القبجاق (القفجاق) في عهد بركة خان :

كان مغول القفجاق الذين أقاموا دولتهم فى حوض الفولجا أول من اعتنق الإسلام بين المغول كافة، فيذكر العمرى " وقد نشأ فيهم الإسلام، وأشرق على أقطارهم نور الإيمان(٣). وقد ساهمت العديد من الشعوب الإسلامية فى نشر الإسلام بين مغول القبجاق مساهمة فعالة ومن أهمها بلغار الفولجا وشعوب خوارزم فقد كان أثرهما أشد فى تحويل المغول إلى الإسلام، وكانت بلاد البلغار قد خضعت لمغول القبجاق كما سبق أن ذكرنا- وكانت أقرب إلى العاصمة سراى الواقعة على نهر الفولجا شمال بلاد البلغار، ومن ثم أثر البلغار تأثيراً قوياً ومباشراً فى دخول مغول القبجاق فى الإسلام(٤).

(١) العمرى، مسالك الأبصار، ص٩٤، وانظر أيضاً: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥٧.
(٢) شبولر، العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق ١٩٨٢، ص٣٩.
(٣) العمرى، مسالك الأبصار، مخطوط مصور، ص٨٨.
(٤) انظر : رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٠٩- ١١٠.

ولكن هذا لا يعنى أن الشعوب الإسلامية فى خوارزم وإيران وآسيا الصغرى لم تساهم فى نشر الإسلام بين مغول القبجاق بل ساهمت مساهمة فعالة فى ذلك وكان لها أثر كبير، فنظراً لأن سراى عاصمة مغول القبجاق، كانت تقع على الطريق الذى يمر به المسلمون القادمون من إيران وآسيا الصغرى وخوارزم وآسيا الوسطى، فقد امتلأت بالتجار من كل صوب وحدب، وكان هؤلاء التجار يسكنون فى أحياء خاصة بهم، رعاية لهم وحفاظاً عليهم وعلى أموالهم ويعبر ابن بطوطة عن ذلك بقوله:" والتجار والغرباء ... ساكنون بمحلة عليها سور احتياطاً على أموال التجار"[1]. وكان هؤلاء التجار وسيلة هامة لنقل المؤثرات الحضارية والإسلامية إلى هؤلاء المغول عن طريق مخالطتهم ومعايشتهم والاحتكاك بهم، وتزويدهم بمنتجات تلك الحضارة من سلع تجارية وعلوم إسلامية، فقد صحب النشاط التجاري انتشار الإسلام بين المغول إذ كان كثير من التجار دعاة للإسلام فى نفس الوقت، لذلك ساهموا مساهمة فعالة فى دخول المغول فى الإسلام[2].

وقد نجح هؤلاء التجار فى تحويل بعض إيلخانات مغول القبجاق وملوكهم إلى الإسلام، وأبرز مثال على ذلك ما قيل حول إسلام بركة خان أول من آمن بالدين الحنيف من ملوكهم، فتذكر إحدى الروايات أنه دخل الإسلام على يد تاجرين وافدين من بخارى، خلا بهما بعض الوقت، وسألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها له شرحاً مقنعاً، أنتهى به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له كل الإخلاص[3]. وعلى الرغم من وجود رواية أخرى حول إسلام بركة سوف يسوقها

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٣٨.

(٢) انظر : رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٠٠- ١٠١.

(٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٩؛ بارتولد، تاريخ الترك، ص١٩٥؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٠٠.

البحث بعد قليل، وهى بعيدة كل البعد عن التجارة والتجار، إلا أنه مما لا شك فيه أن التجار لعبوا دوراً كبيراً فى نشر الإسلام بين صفوف مغول القبجاق، كما سبق ونشروه بين البلغار والخزر وغيرهم من شعوب حوض الفولجا.

أما عن تفاصيل تلك الرواية فهى تذكر أن بركة أسلم قبل أن يعتلى العرش - عرش دولة مغول القبجاق- وفى الوقت الذى أرسله فيه أخوه باطو خان لاجلاس منكوخان على كرسى جده جنكيز خان، وبعد أن أجلسه على التخت عاد، فمر فى طريق عودته ببخارى، وكان بها الشيخ شمس الدين البخارى وقيل (الباخورى)[١] - وهو من تلاميذ شيخ الطريقة نجم الدين الكبرا من ذرية عمار ابن ياسر- الذى ظهر صيته وارتفع ذكره، ففر من مريده إلى المدن العظام ليظهروا بها الإسلام كما يذكر العينى[٢]. أرسل هذا الشيخ تلميذاً له كبير المحل عنده إلى بركة خان؛ أثناء وجوده فى بخارى، فاجتمع به ووعظه، وحبب إليه الإسلام، وأوضح له منهاجه، فأسلم بركه على يده.

ثم سار بركة بنفسه إلى الشيخ الباخرزى (البخاري)، حتى وصل إلى باب زاويته، فلم يأذن له بالدخول عليه، فمكث- كما تذكر الرواية- بالباب ثلاثة أيام لم يتحول عنها، وفى أثناء ذلك قصد الشيخ امتحانه ليختبر إيمانه، وفى نهاية الأمر أذن له بالدخول عليه، فلما دخل عليه صافحه، وجدد بركة إسلامه على يده، وعاهد الشيخ على إظهار الإسلام، وأن يحمل عليه سائر قومه، ثم عاد إلى

---

(١) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٥، ق١٠، ص١١٣٣.

(٢) انظر العينى، عقد الجمان فى تواريخ أهل الزمان، ج١، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٩١.

بلده[1]. وكان الشيخ الباخرزى قد أشار عليه بموالاة المستعصم خليفة بنى العباس ببغداد يومئذ، فكاتبه وهاداه، وترددت الرسل والمكاتبات بينهما[2]. وتظهر هذه الرواية دور المتصوفة فى نشر الإسلام، والذى لم يقل بأى حال من الأحوال عن الدور الذى لعبه التجار.

هناك رواية ثالثة حول إسلام بركة تذكر أنه اعتنق الإسلام منذ طفولته، ولما شب وبلغ سن التعليم، حفظ القرآن على يد أحد علماء مدينة خوقند Khod jand، ويبدو أن هذه الرواية هى الأرجح لأن الذى ذكرها مؤرخ يدعى الجوزجانى وقد جمع تاريخه فى حياة بركة خان[3].

وما أن تولى بركة خان دولة مغول القبجاق (٦٥٤- ٦٦٥هـ/ ١٢٥٦- ١٢٦٧م) حتى أعلن الإسلام ديناً لدولته، وأظهر شعائره فى مملكته، وكرس حياته كلها لنشر الإسلام بين قومه فى بلاد القبجاق، فحملهم على الدخول فيه، ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً، إذ أسلمت زوجته ججك على يد الشيخ نجم الدين كبرا، واتخذت لها مسجداً من الخيم، يحمل معها حيث اتجهت ويضرب حيث نزلت[4]. كذلك اعتنق جيش بركة الإسلام، بل وجرت العادة على أن يحمل كل

(١) عن هذه الرواية انظر: بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق زبيدة عطا، ص٩٩- ١٠٠، العينى، عقد الجمان، ج١، ص٩١- ٩٢، القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧٤، ٣٠٨، ٣٠٩، ابن خلدون، العبر، ج٥، ق١٠، ص١١٣٣.

(٢) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٩.

(٣) ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٩.

(٤) انظر: المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٩٥؛ العينى، عقد الجمان، ج١، ص٩٠.

فارس فى جيشه سجادة للصلاة، حتى إذا ما حان وقتها، أدى كل منهم واجبه وانشغل بصلاته، والتزم الجند بتعاليم الإسلام، فلم يكن فى جيش بركة شخص يتعاطى المسكرات[١].

وحرص مغول القبجاق على تأدية الصلوات فى أوقاتها، وأداء صلاة الجمعة فى المساجد الجامعة، وكان بركة إذا سافر تحمل معه مساجد من خيم، ولها مؤذن، وتقام فيها الصلوات الخمس[٢].

وبلغ من اهتمام بركة بإقامة شعائر الإسلام أن أمر بأن يكون فى حاشية كل واحدة من زوجاته، وكل أمير من أمرائه أيضاً، إمام ومؤذن لإقامة شعائر الدين[٣]. كما اهتم بركة ببناء المساجد والمدارس فى نواحى مملكته لتعميق الثقافة الإسلامية بين شعبه[٤]. وأكرم بركة الفقهاء والعلماء وأدناهم وأبرهم ووصلهم، ونظم المناظرات الدينية التى كانت تعقد فى قصره بين علماء الإسلام وأصحاب الديانات الأخرى، وكان يشترك بنفسه فى هذه المناظرات، ولا يتم انعقادها إلا بحضوره وحضور العلماء ورجال الدين الإسلامى، مما صبغها بالصبغة الإسلامية[٥].

---

(١) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩٥؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص٢٤، ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٥٩.

(٢) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي، ج٣، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٣٥٠.

(٣) المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٩٥، حاشية ٢؛ بارتولد، الترك، ص١٩٦.

(٤) العينى، عقد الجمان، ج١، ص٩٠؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، العبر،م٥، ص١١٣٩- ١١٤٠.

(٥) أرنولد، الدعوة، ص٢٥٩؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٥٠.

اتسمت تصرفات بركة وحياته العامة والخاصة بالطابع الإسلامى فقد سمى أولاده بأسماء إسلامية، بدلاً من الأسماء المغولية والتركية المألوفة، مثل حسام الدين، صلاح الدين أحمد، بدر الدين محمد، ناصر الدين محمد، وأكثر من ذلك أرسلهم إلى القاهرة، لينهلوا من الثقافة الإسلامية، المتأصلة فى هذا البلد الإسلامى العريق، فتعلموا فى الأزهر وفى مدارس القاهرة، وأتقنوا العربية، واستقر هؤلاء الأبناء فى مصر حتى مات الأول وهو حسام الدين بها عام ٦٦١هـ/١٢٦٢م، فيذكر المقريزى فى حوادث هذه السنة وفى ليلة الأربعاء خامس ذى الحجة توفى الأمير حسام الدين بن بركة خان، فحضر السلطان (أى بيبرس) جنازته، ومشى فيها مع الناس[١].

وانخرط الابن الثانى وهو صلاح الدين محمد فى سلك الأمراء المماليك بمصر[٢]. أما الثالث وهو بدر الدين محمد فقد انقطع للعلم والاغتراف من بحر الثقافة الإسلامية وعلومها العربية، وكان له ديوان شعر باللغة العربية، وكتب فى علم الكلام وفي التفسير والقراءات وغيرها، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يدلى بدلوه فى سياسة ابن أخته السعيد ناصر الدين بن الظاهر بيبرس، فبعد أن تغير على أمراء أبيه وقبض عليهم، دخل الأمير بدر الدين محمد إلى ابن أخته أم السلطان السعيد وقال لها: " قد أساء ابنك بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر، والمصلحة أن ترديه إلى الصواب، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه"[٣].

ولم يكتف بركة بتسمية أولاده بأسماء عربية، وتعليمهم علوم الإسلام

---

(١) السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠.

(٢) انظر : المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٠٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٤٥.

واللغة العربية فقط، بل اتخذ لنفسه ألقاباً إسلامية فتلقب بلقب أبى المعالى ناصر الدين السلطان بركة خان[١]. كما اختار وزيراً فارسياً اسمه شرف الدين القزوينى، وكان هذا الرجل عليماً بأحوال زمانه ومتقناً اللغة العربية والتركية، التى كانت واحدة من شروط الوزارة آنذاك[٢].

لم يهتم بركة بتوطين الإسلام فى بلاده فحسب، بل سعى من أجل أن يجعل نفسه مدافعاً عن مصالح الإسلام والمسلمين حتى أصبح الملاذ والملجأ لمسلمى المناطق التى تحتلها جحافل المغول، فكان كل من يلحق به ظلم أو جور من المسلمين فى تلك المناطق يلجأ إليه، إذ كانوا يعتبرونه قيماً على مصالحهم. فعندما تجرأ مسيحيو سمرقند على المسلمين فيها وأخذوا يسومونهم صنوف العذاب والهوان بعد أن عاشوا قروناً عديدة تحت الحكم الإسلامى، تدخل بركة وقتل جماعة من هؤلاء المسيحيين على سبيل الانتقام، حتى لا يحاولوا الاعتداء على المسلمين مرة أخرى، وكان لذلك أكبر الأثر فى قدوم كثير من المسلمين إلى بلاده[٣].

حرص بركة على أن يرتبط بعلاقات صداقة ومودة مع جيرانه المسلمين وعلى التكاتف والتعاون معهم فى مواجهة أعداء الإسلام والمسلمين، شجعه على ذلك أن البداية جاءت من قِبَل السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) سلطان المماليك فى مصر والشام الذي حرص على توطد علاقاته مع دولة مغول القبجاق المسلمة وخانها بركة خان، بأن استقبل في بلاطه جماعة من

---

(١) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٧٤.
(٢) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية فى بلاد القبجاق، ص٢٣٨.
(٣) بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص٢٢٣- ٢٢٤.

مغول القبجاق بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، حينما جاءت إليه تطلب منه الأمان، وتظهر رغبتها فى الإسلام، وكان بركة قد أرسلهم نجدة لهولاكو قبل وقوع العداء بينهما، ولما ساءت العلاقة بينه وبين هولاكو، كتب بركة إليهم بأن يحضروا إليه، وإن لم يتمكنوا من ذلك ينحازوا إلى عساكر الديار المصرية[١]. ويذكر محى الدين بن عبدالظاهر "أنهم فوق المائتى فارس بأهاليهم"[٢]. ويذكر أيضاً أن السلطان كتب إلى نواب الشام بإكرامهم، والإقامة لهم بما يحتاجون إليه من العليق والغنم وغيره، وحمل الخلع إليهم وإلى نسائهم، وأحسن إلى مقدميهم الأربعة، وسير لهم الإقامات من مصر، من الأغنام والسكر والشعير والحوائج خاناه، ووصلوا إلى مصر فى يوم الخميس ٢٤ من ذى الحجة، وخرج السلطان للقائهم.. ولم يبق أحد من أهل القاهرة ومصر حتى خرج للقائهم.. وأمر السلطان بعمارة آدر ومساكن لهم قريب اللوق[٣].. وحملت إليهم الخلع.. وفرقت فيهم الأموال.. وأمر كبراءهم بمائة فارس فما دونها.. وصار كل منهم كأمير مستقل له الأجناد والغلمان، وأسلموا وحسن إسلام جميعهم.."[٤].

كتب بيبرس إلى بركة (فى عام ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) كتاباً وأرسله إليه بصحبة

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص١٣٧؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٤؛ العينى، عقد الجمان فى تواريخ أهل الزمان، ج١، ص٣٦٤.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٣٧.

(٣) كان أرض اللوق بساتين ومزروعات، وليس فيها من الأبنية إلا ما عمره القاضى الفاضل نفسه، وكان مجئ هؤلاء المغول سبباً لبناء دور للسكن بها لأول مرة.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض، ص١٣٧- ١٣٨؛ وانظر أيضاً: المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٣-٤٧٤؛ النويرى، نهاية الإرب فى فنون الأدب، ج٢٧، ص٨٩- ٩٠؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص١٠١.

من يثق به من التجار، يغريه فيه بهلاون (هولاكو) ويوقع بينها العداوة والبغضاء، ويحثه فيه على جهاده، لأن الإسلام يحتم عليه جهاد الكفار، ولو كانوا أهله، مستشهداً فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم الذى حارب أهله وعشيرته الأقربين، وجاهد قريشاً، وأمر أن يقاتل الناس حتى يقولوا " لا إله إلا الله"، وأوضح له بيبرس فى الخطاب أن الجهاد أحد ما للإسلام من أركان..[١].

رد بركة على بيبرس بسفارة وصلت فى العام التالى فى مستهل رجب من عام ٦٦١هـ/ مايو ١٢٦٣م، وتذكر المصادر[٢] وكان رسله الأمير جلال الدين بن القاضى، والشيخ نور الدين على[٣] ومعهما جماعة وكتاب من بركة يتضمن:

أولاً : يعلن بركة إسلامه وإسلامه قومه، ويخبره بأسماء من أسلم من أهل بيته وبيوت أخوته، وبيوتات المغول وقبائلهم وعشائرهم، صغيرهم وكبيرهم.

ثانياً : أوضح بركة لبيبرس، أن قومه لم يدخلوا الإسلام قولاً فحسب، بل فعلاً كذلك إذ قاموا بالفرائض والسنن، وأدوا الزكاة، وحاربوا الغزاة وهم على استعداد للجهاد فى سبيل الله.

---

(١) انظر ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص٨٨، ٨٩؛ وانظر أيضاً: العينى، عقد الجمان، ج١، ص٢٨٩.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض، ص١٧٠- ١٧٤؛ العينى، عقد الجمان، ج١، ص٣٦٠؛ النويرى، نهاية الإرب، ج٢٧، ص٨٧؛ ١٠٥؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٥- ٤٩٨؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٩٩.

(٣) ذكر المفضل بن أبى الفضائل، أن اسم الرسول الثانى هو عز الدين التركمانى واختلف بذلك مع سائر المصادر، انظر المفضل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره بلوشيه Blochet فى Patrologia Orientalis, XII, PP. 452–454.

ثالثاً : أخبر بركة السلطان الظاهر بأنه حارب هلاون (هولاكو) الذى هو على حد تعبيره (من لحمه ودمه) وذلك لإعلاء كلمة الله، وتعصباً لدين الإسلام، ولأنه باغى، والباغى كافر بالله ورسوله، وأيضاً رغبة فى إعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة، وأخذ ثأر الأئمة والأمة[1]. وحتى يؤكد لبيبرس حربه ضد هولاكو، أرسل إليه صحبة رسله ابن شهاب الدين غازى لأنه كان حاضراً الواقعة ضد هولاكو، ليحكى للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال، وعرض بركة على بيبرس أن يتحدا سوياً ضده ويتعاونا فى القضاء عليه إذ جاء فى رسالته " وقد رأيت أن تقصده أنت من جهتك، وأقصده أنا من جهتى، ونصدمه يداً واحدة، ونزيحه عن البلاد وأنا أعطيك ما فى يده من بلاد الإسلام"[2].

رابعاً : أشاد بركة بالجهد الكبير الذى بذله السلطان ودعا له بالتوفيق لأنه "أقام إماماً من آل العباس فى خلافة المسلمين، فقد كان بركة سنياً مغالياً شديد التمسك بمذهبه،، لذلك سر كثيراً عندما علم بأن الظاهر بيبرس أقام خليفة من آل العباس، وأحيا بذلك الخلافة العباسية السنية، التى كان هولاكو قد قضى عليها.

خامساً : أشاد بركة بالخليفة العباسى الحاكم بأمر الله، الذى دعا له بنفسه فى خطبة صلاة الجمعة بعد السلطان وذلك يوم الجمعة الموافق ١٨ شعبان عام ٦٦٠هـ.

وبعد أن تسلم بيبرس رسالة بركة، أحسن إلى رسله وأكرمهم، وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق، وواصل الإنعام عليهم واستمر يتفقدهم فى كل يومى الثلاثاء

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٧١.

(٢) المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، ص٤٥٣.

والسبت، يومى لعب الكرة، وينعم عليهم بأصناف الإنعام والأقمشة[1]. مما كان له أكبر الأثر،فقد قوى من شأن بركة فى نفوس شعبه وأهله وعشيرته.

وعندما همَّ رسل بركة بالرحيل، جهز السلطان بيبرس هدية جليلة للملك بركة من كل شئ على اختلافه وهى: "ختمه شريفة ذكر أنها بخط عثمان بن عفان رضى الله عنه .. وسجادات للصلاة متنوعة الألوان خرق بندقى، وأكسية لواتية، وسيوف .. ودبابيس مذهبة، وخوذ فرنجية .. وفوانيس مغشاة، وشمعدانات .. ومشاعل جفتاه وقواعد برسمها مكفتة، وسروج خوارزمية، ولجم.. وأنواع مختلفة من القسى والرماح والنشاب، وقناديل مذهبة بسلاسل من فضة مطلاة بالذهب، وخدام سود وجوارى طباخات، وخيل سوابق عربية، وهجن نوبية ودواب وغير ذلك[2].

وجهز السلطان الظاهر بيبرس كل من الأمير فارس الدين اقوش المسعودى والشريف عماد الدين عبدالرحيم الهاشمى رسولين لبركة وسلمهما الهدية، ورد السلطان على رسالة بركة، وقد كتبه ابن عبدالظاهر فى قطع النصف فى سبعين ورقة بغدادية[3]، فيه آيات من كتاب الله تعالى وأحاديث الرسول صلى الله عليه

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٧١؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٥.

(٢) عن هذه الهدايا انظر: العينى، عقد الجمان، ج١، ص٢٦١، ٣٦٢؛ ابن عبدالظاهر، الروض، ص١٧٢- ١٧٣؛ المفضل بن أبى الفضائل، النهج السديد، ص٤٥٣- ٤٥٤؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٧- ٤٩٨؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص١٠٠.

(٣) الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة، وكان مخصوصاً لكتابة المصاحف ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك. انظر: القلقشندى، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٧٦.

وسلم، التى تحث على الترغيب فى الجهاد والاقتداء بالنبي فيه[1] وقد جاء فى رد السلطان ما يلى:

- أنه يبذل مساعى شتى من أجل إقامة الشريعة،ورفع منار الدين وجهاد المشركين، وملازمة العفاف، ومعاملة الرعية بالعدل والإنصاف؛ كما أنه جمع من الجنود والعساكر ما ليس له أول ولا آخر[2].
- أمر السلطان الخطباء بأن يدعوا لبركة بمكة شرفها الله وبالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وببيت المقدس وبمصر والقاهرة بعد الدعاء للسلطان الظاهر فى الخطبة[3].
- عرف السلطان بركة بأحوال عساكره وكثرتها، وما هو بصدده من جهاد وما يبذله من نصرة الدين وقتال الأعداء المشركين. وأنه محب للملك بركة، وداع له بالنصر على الأعداء وموافق له على ما فيه من صلاح العالم[4].

يصف كل من ابن عبدالظاهر والمفضل بن أبى الفضائل الطريق الذى سلكته سفارة بيبرس إلى بلاط بركة خان ومراسم الدخول عليه، وصفاً تفصيلاً له ولعرشه[5]. وبعد أن تسلم بركة منهم رسالة السلطان، أجلسهم عن يمينه، وأمر

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عبدالظاهر، الروض، ص١٧١- ١٧٢، وقد أورد النويرى، نهاية الإرب، ج٧، ص٦٤- ٦٥ نص الكتاب كله.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض ، ص١٧٤.

(٣) نفسه، ص١٧٤؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٩٨.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٧٤.

(٥) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٢١٥؛المفضل، النهج السديد، ٤٥٧- ٤٦٠.

الوزير بقراءتها، ثم أحضر لهم القمز (لبن الخيل) وبعده العسل المطبوخ، ثم أحضر لهم لحماً وسمكاً فأكلوا، ثم أمر بإنزالهم عند زوجته ججك خاتون، ولما أصبحوا ضيفتهم فى خركاتها، ثم انصرفوا آخر النهار إلى منازلهم، وكان بركة يجالسهم باستمرار ليتعرف منهم على مصر وعجائبها(١).

أقام هؤلاء الرسل فى بلاط بركة ستة وعشرين يوماً، ثم رحلوا بعدها إلى مصر بعد أن أعطاهم بركة شيئاً من الذهب، وخلعت عليهم زوجته ججك، وأعطاهم جوابه على السلطان، وأرسل معهم رسل من قبله وهم : اربوقا، وازتيمور وتيمورتاس(٢). وقد أشار رسل السلطان عند عودتهم إلى بلاطه فى مصر إلى أمرين:

الأول : انتشار الإسلام على أوسع نطاق فى بلاد بركة بدليل ما ذكره هؤلاء الرسل من أن "كل أمير من أمرائه عنده مؤذن وإمام، وكذلك لكل خاتون مؤذن وإمام، وللصغار عندهم مكاتب يتلقنون القرآن العزيز فيها ويتلونه"(٣).

الثانى : ساهم الإسلام بشكل كبير فى توطيد العلاقة بين بركة ومصر حتى أن أعضاء السفارة أبلغوا عن وجود عدد من فقهاء مصر ومشايخها فى بلاده فيذكر المفضل "وكان عند الملك بركة رجل من أهل الفيوم اسمه الشيخ أحمد المصرى له عنده حرمة كبيرة"(٤). ولا عجب فى ذلك فقد كان بركة محباً للعلماء

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٢١٥- ٢١٦؛ المفضل، المنهج، ص٤٦١.

(٢) المفضل، النهج، ص٤٦٢؛ ابن عبدالظاهر، الروض، ص٢١٦؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٥١٤- ٥١٥.

(٣) المفضل، النهج، ، ص٤٦٢؛ ابن عبدالظاهر، الروض، ص٢١٧.

(٤) المفضل، النهج، ص٤٦٢.

والفقهاء والصالحين.

ظلت علاقات المودة تربط بركة بسلطنة المماليك فى مصر، حتى توفى بركة عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م فيذكر العينى "وكان بينه وبين السلطان الملك الظاهر صحبة ومودة، وكان لا يقطع مكاتبته ولا مراسلته"(١).

وتظهر هذه المكاتبات بين سراى والقاهرة مدى عمق العلاقات التى ربطت بين الطرفين، كما تدل على عمق العقيدة الإسلامية فى نفس السلطان بركة، وأثر الثقافة الإسلامية على الشعوب المغولية على ضفاف الفولجا، وتعكس مدى انفعال بركة بالمسلمين وبالتقاليد الإسلامية، ومساندته للإسلام، ودفعه له دفعة قوية بالانتصار على عدوه اللدود هولاكو انتصاراً حاسماً، وكان كما يذكر رشيد الدين الهمذانى(٢) قد دمر مدن المسلمين، وقضى على أسر ملوك الإسلام، وأعدم الخليفة دون مشورة كبار الأسرة " لذى أدى بركة واجب الجهاد فى سبيل الله بمحاربة أعدائه، وعل رأسهم ابن عمه هولاكو ايلخان مغول فارس(٣)؛ ثم ابنه (اباقا) ابغا من بعده وكان معادياً للإسلام والمسلمين مثل أبيه(٤).

---

(١) العينى، عقد الجمان، ج٢، ص١٦؛ وانظر أيضاً: ابـن عبـدالظاهر، الـروض، ص١٩٤، ٢١٣، ٣٣٥.

(٢) جامع التواريخ، م٢، ج١، ترجمة صادق نشأت، محمد موسى، فـؤاد الصـياد، القـاهرة، ١٩٦٠م، ص٣٣٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن الحروب التى دارت بين بركة وهولاكو انظر: العينى، عقد الجمان، ج١، ص١٠٨- ١٠٩، ٣٦٢-٣٦٣؛ المقريزى، السـلوك، ج١، ق٢، ص٤٧٣- ٤٧٤؛ بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية فى تاريخ الدولة التركية، نشـره عبدالحميـد صـالح حمدان، ١٩٨٧م، ص٣٧، ٤٩.

(٤) عن الحروب بين بركة وابغا بن هولاكو انظر: رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ، م٢، ج٢، ص١٣- ١٤؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٤١؛ العينى، عقد الجمـان، ج١، ص٤١٧؛ بيبرس المنصورى، التحفة، ص٥٥.

أدى بركة أيضاً دوره فى خدمة الإسلام بالعمل على نشره سواء بين المغول أو بين غيرهم من الأقوام التى دخلت فى طاعة المغول، وقد تعاون معه فى هذا الصدد بلغار الفولجا المسلمين واجتمعوا سوياً على هدف واحد وهو نشر الإسلام داخل مملكتهم فى بلاد القبجاق وخارجها[1]. كذلك قام بركة بتشييد المساجد خارج بلاده فقد طلب من ابغا (اباقا) ابن هولاكو بعد وفاة الأخير أن يأذن له فى بناء جامع تبريز .. فأذن له فبناه وقام بذلك[2].

إسلام خانات القبجاق بعد بركة خان ودورهم في جهاد أعدائه :

توفى بركة فى عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م بعد أن دخل نور الإسلام وانتشر بين حكام مغول القبجاق، لذلك كان من الطبيعى أن يتمسك بأهدابه من جاء بعد بركة، فقد جلس على عرش القبجاق خليفة لبركة ابن أخيه منكوتيمور بن باتو خان (٦٦٥-٦٧٩هـ/ ١٢٦٦-١٢٨٠م) إذ لم يترك بركة ولداً يخلفه[3] وعلى الرغم من صمت المؤرخين جميعاً معاصرين ومحدثين عن ذكر شئ يتعلق بإسلام منكوتيمور إلا أن هناك من الدلائل ما يشير إلى إسلامه ومنها :

أولاً : الدراهم التى رآها الفاضل المرجانى فى بلغار، وأولها درهم مضروب فى بلغار عام ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م مكتوب عليه "منكوتمر خان الأعظم، ضرب هذا الدرهم فى بلغار سنة ٦٧٣هـ؛ ودرهم آخر مضروب فى عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م مكتوب عليه "العز الدائم، والشرف القائم، توكلى على الله فى محرم سنة ٦٧٨هـ

---

(١) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٠٩.

(٢) ابن خلدون، العبر، م٥، ص١١٣٩- ١١٤٠.

(٣) المقريزى، السلوك ، ج١، ق٢، ص٥٦١؛ العينى، عقد الجمان، ص١٦- ١٧.

حمداً لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له"[١]. وبالنظر إلى ما كتب على هذين الدرهمين ومكان ضربهما وهو مدينة بلغار، يتضح أن صاحبهما كان مسلماً وإلا لما شهد الشهادة، ولما ضرب درهمه فى بلغار، وهى عاصمة لدولة مسلمة- كما اتضح من قبل- ومن ثم تشهد هذه الدراهم بإسلام منكوتيمور.

ثانياً : أن منكوتيمور حمل لواء الدفاع عن حكام المسلمين وعن المسلمين أنفسهم، يتضح ذلك من موقفه حيال السلطان السلجوقى المسلم عز الدين كيكاوس، ومن خلال حفاظه على استمرار علاقات الصداقة والمودة مع سلاطين المماليك فى مصر سيراً على نهج عمه بركة، واستمراره كذلك فى مناصبة ابغا ابن هولاكو العداء.

أما فيما يتعلق بموقف منكوتيمور من عز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم تذكر المصادر[٢] أنه اتهم بالاشتراك فى مؤامرة لاغتيال الإمبراطور البيزنطى ميخائيل باليولوجوس (١٢٦١-١٢٨٢م) والتآمر على حياته، وعلم الإمبراطور بذلك فنفاه إلى قلعة اينوس Ainos على بحر إيجه، وعندما أغار جيش منكوتيمور على القسطنطينية عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م، ومر بالقلعة التى بها عز الدين كيكاوس أطلق سراحه. وحمله التتار بأهله ونسائه إلى منكوتيمور،

---

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار ، ص٤٦١.

(2) Pachymeres. G, De Michael et Andronico Palaeologis Libri, In Cropus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae 1835, P. 137; Gregoras, Historiae Byzantinae, In (C.S.H.B), Bonnae 1829, P. 81;

المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٤٠٨، ٥٢٢؛ ابن خلدون، العبر، م٥، ق٤، ص٣٦٦- ٣٦٧، ص١١٨٢- ١١٨٣؛ ابن الفرات، تاريخه، م٧، ص٣٢٧؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، م٣، ص٢٢٨.

فتلقاه بالإكرام وعامله بالاحترام، وزوجه بإمرأه من أعيان نسائهم، تسمى اربای خاتون من بنات بركة، وظل عز الدين فى سرای (صرای) عاصمة مغول القبجاق حتى توفى فى عام سبع وسبعين وستمائة[1].

حرص منكوتيمور كذلك على استمرار علاقات الصداقة والمودة التى تربطه بدولة المماليك فى مصر والشام سيرا على سياسة عمه بركة، خاصة وأن السلطان بيبرس بادر بأن أرسل إليه سفارة فى عام ٦٦٦هـ/ ١٢٦٧م "بالتعزية لأجل بركة خان والتهنئة لأجل ولايته عوضه، وأغراه على قتال اباقا (ابغا) بن هولاكو"[2]. فأجابه بالموافقة على محاربته، والاستيلاء على ما أخذه أبوه هولاكو من بلاد الإسلام، وأرسل منكوتيمور إلى بيبرس، يطلب منه أن يتعاون معه للوقوف فى وجه آباقا، "بأن يركب من جهته، وأن يركب الملك منكوتيمور جهته، وأين وصلت خيل سلطاننا كان له، وأين وصلت خيل السلطان كان له"[3]. كان لهذه الرسالة وقع عظيم على ابغا فعندما سمعها "انزعج انزعاجاً شديداً" كما يذكر ابن عبدالظاهر[4].

توالى تبادل السفارات بين سراى والقاهرة خلال أعوام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، وشعبان ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م ، ورجب من عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م[5]. وكان لهذه السفارات المتبادلة بين الجانبين أكبر الأثر فى حمل

---

(١) العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٦٢- ٦٣.

(٢) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٢٨٨، ٣٣٥، المقريزى، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٦٣.

(٣) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٣٩٩- ٤٠٠.

(٤) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٤٠٠.

(٥) من هذه السفارات انظر: ابن عبدالظاهر، الروض، ص٤٠٠، ٤٠٤، ٤١١؛ العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٩٣، ١٠٤؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٠٧، ٦٢١.

الإسلام والتأثيرات الثقافية الإسلامية إلى بلاد القبجاق وحوض الفولجا.

ثالثاً : أظهر منكوتيمور حرصاً شديداً على الإسلام، بل وحاول قتال كل من يحاول الإساءة له، فلما تفوه فى عهده روسياً يدعى رومانا، بأن دين الإسلام كذب، سلخوه وملوؤا جلده بالتبن[1].

انتشر الإسلام على أوسع نطاق فى عهد منكوتيمور وليس أدل على ذلك من إسلام نيسو نوجاى أو نوغاى، وهو من الشخصيات الهامة، التى لعبت دوراً كبيراً فى دولة مغول القبجاق، فقد كان قائداً لجيوش بركة خان ومن خلفه من حكام، وتمت على يديه معظم انتصاراتهم فيذكر رشيد الدين الهمذانى أنه فتح عدة ولايات بنفسه، واتخذها موطناً له[2]. يتضح من ذلك أنه كان يعيش شبه مستقل داخل دولة مغول القبجاق، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ البيزنطى باخمير Pachmeres من أنه كان يحكم مستقلاً المناطق المحيطة بشمال البحر الأسود، وأنه استقل عن رؤسائه، الذين حاولوا اخضاعه بالقوة دون جدوى[3].

وكان دخول نوغاى الإسلام إعزاز للإسلام وللمسلمين؛ فقد حرص نوغاى على الإسلام ورفع راية الجهاد من أجله ومن مظاهر حرصه هذا:

أولاً : دخول أفراد من أسرة نوغاى في الإسلام، فقد اعتنقت ابنته الإسلام بعد فترة من زواجها، فأساء إليها زوجها، وكان وثنياً لإصرارها على التمسك

---

(١) انظر: الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٤٦٢؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١١٦.

(٢) رشيد الدين الهمذانى، تاريخ خلفاء جنكيز خان، ص١٢٧- ١٣١؛ وانظر أيضاً: العينى، عقد الجمان، ج٣، ص١٠٦- ١٠٩، ١٨٩- ٢٤٥؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٢٧، ص٣٦٦- ٣٧١.

(3) Pachymeres, De Michael, PP. 344- 45.-

بدينها، وحاول نوغاى محاربته ولكنه فر عند واحد من خانات المغول لحمايته من بطش نوغاى، فما كان من نوغاى إلا أن حارب هذا الخان لإيوائه هذا الزوج الوثنى(١).

ثانياً : اتصال نوغاى بالسلطان الظاهر بيبرس فى مصر، فقد أرسل إليه رسولاً معه كتاب يخبره فيه بدخوله الإسلام، ويأمل أن تربطهما علاقة مودة وسلام، ووفاق والتئام وذلك فى عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، وجاء نص كتابه على النحو التالي : " من نيسو نوغاى إلى الملك الظاهر: أحمد الله تعالى أن جعلنى من جملة المسلمين، وصيرنى ممن يتبع الدين المستبين، وأصلى على مختتم الرسالة، ومعلم الدلالة، وإمام المرسلين وقوام المتقين محمد صلى الله عليه وسلم... وبعد فإن كتابنا هذا يحتمل على معنيين أحدهما : التحية والسلام منا إليك والثانى : ... نخبرك أنا دخلنا فى الإسلام، وآمنا بالله، وبما جاء من عنده، وبرسول الله [محمد] صلى الله عليه وسلم ... ويطلب منه ألا يقطع إرسال المكاتبة قائلاً نحن معك كالأنامل لليد، نوافق من يوافقك، ونخالف من يخالفك "(٢).

وأكرم بيبرس رسوله وكتب رداً على هذا الخطاب جاء فيه: صدرت هذه المكاتبة إلى سامى مجلس العزيز الأصيل المجاهد فى سبيل ربه.. ذخيرة المسلمين وعون المؤمنين نيسو نوغاى، عمر الله قلبه بالإيمان، وجعل من أمر

---

(١) ابن عبدالظاهر، الروض، ص٣٧١- ٣٧٢؛ العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٨١- ٨٢؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص١٢٠؛ المقريزى؛ السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: النويرى، نهاية الأرب، ج٢٧، ص٣٦٩- ٣٧١؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٣٣، ٨٣٧، ٨٧٤؛ بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة، ٣٢٩- ٣٢٠؛ ص٣٠٥- ٣٠٦؛ حياة ناصر الحجى، العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القبجاق (٦٥٨- ٧٤١هـ/ ١٢٦٠- ١٣٤١م) ص١٦-١٨.

دنياه وأخراه فى أمان... حمدنا الله على أن أكثر به حزب المؤمنين، وجعله فى ذلك الجانب متبتلاً لقتال الكافرين، ... وأبلغه التحية، وطلب منه أن يجاهد المشركين مثلما فعل بركة خان حتى تنكسر شوكة الكفار، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار،.. ويغريه فى النهاية على قتال بنى عمومته مغول فارس[1].

ثالثاً : قام نوغاى بدور بارز فى قتال مغول فارس، وقد أصيبت عينه بأحد السهام، فى حربه معهم، واستمر يقاتلهم طيلة عهد خانات مغول القبجاق حتى توفى فى عام ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م[2].

ظلت روح الإسلام هى المسيطرة والغالبة على دول مغول القبجاق فى حوض الفولجا، فقد أظهر تودا أو تدان منكوخان (٦٨٠- ٦٨٦هـ/ ١٢٨١-١٢٨٧م) خليفة منكوتيمور حبه للإسلام وإخلاصه له، وبدأ بتوطيد علاقاته مع مصر إذ أرسل إليها فى عام ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م رسلاً من فقهاء القبجاق أحدهم يسمى مجد الدين اتا (اطا) والآخر نور الدين ورفيق ثالث لهما، ومعهم كتاب بالخط المغولى معرب، ويتضمن ما يلى[3]:

أولاً : الإعلام بدخول تدان فى دين الإسلام وجلوسه على العرش، وإقامته شرائع الدين ونواميس المسلمين.

---

(١) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١١٧.

(٢) العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٨٢، ٨٣؛ ابن عبـدالظاهر، الـروض، ص٣٧٣؛ بيبـرس الدوادارى، زبدة الفكرة، ج٩، ص١٢٠- ١٢١.

(٣) عن هذا الكتاب انظر: ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملـك المنصـور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م، ص٤٦؛ العينى، عقد الجمان،ج٢، ص٣٠١؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢١٧- ٢١٨؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٣١، تحقيق السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٠٢-١٠٣.

ثانياً : الوصية بالفقهاء الواصلين بكتابه وأعضاء سفارته، ومساعدتهم على أداء فريضة الحج المبرور، الذى جاءوا له قاصدين.

ثالثاً : يطلب من السلطان أن ينعته نعتاً يسمى به من أسماء المسلمين، وعلماً خليفتياً وعلماً سلطانياً، يقاتل بهما الأعداء، أعداء الدين الإسلامى من الكفار. مما يظهر رغبته الشديدة فى التقرب من الخليفة وتطبيق الشريعة الإسلامية والدفاع عن الإسلام وأهله.

عمل السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) بوصية تودان فاهتم بأمر الفقهاء المذكورين، وجهزهم إلى مكة صحبة الركب، وزودهم بما يحتاجون إليه، ولما عادوا بعد أداء فريضة الحج، أحسن إليهم غاية الإحسان، وسفرهم على أتم حال وأحسنه[١]، وأرسل قلاوون معهم رده على رسالة تودان يخبره فيه "بالمسرة التى حصلت بإسلامه، والمودة التى تأكدت بخروجه من ظلم الكفر وظلامه[٢]. وأرسل قلاوون مع الرد هدية قدمها سفيره الأمير سيف الدين بلبان الغنمى إلى تودان وهى عبارة عن تحف وخيل مسومة بسروجها وعُددها وهى ستة رءوس[٣].

وحرص السلطان المنصور قلاوون كذلك على مد تودان بالمساعدات المادية لبناء المساجد، ودعم صرح الإسلام فى بلاده، فيذكر المقريزى[٤] فى حوادث سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م" وفيها جهز السلطان هدية سنية إلى بر بركة، ومبلغ الفى دينار

(١) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام، ص٤٦؛ العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٣٠١.
(٢) بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص١٠٨.
(٣) ابن عبدالظاهر، تشريف الأيام، ص١٤٣.
(٤) السلوك، ج١، ق ٣، ص٧٣٨.

برسم عمارة جامع قرم، وأن تكتب عليه ألقاب السلطان وجهز حجار لنقش ذلك، وكتابتها بالأصباغ". مما يدل على أن السمات المصرية الإسلامية فى الأبنية وخاصة المساجد، قد انتقلت إلى بلاد القبجاق وبذلك اكتسبت المعالم الحضارية على نهر الفولجا مظاهر إسلامية قادمة من الحوض الشرقى للبحر المتوسط فقد شيد المهندسون والحرفيون المصريون المساجد والقصور والأبنية فى جزيرة القرم وفى العاصمة سراى (صراى) على حوض الفولجا[١].

رفع تودان (تودامنكو) راية الجهاد ضد أعداء الإسلام، فأرسل قائده الشهير نوغاى على رأس حملات عسكرية لغزو بعض البلاد المسيحية فى أوربا ومنها المجر عام ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وبولندا فى عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م وغيرها وانفعل تودان بالإسلام انفعالاً قوياً، وأظهر إخلاصه له، حينما أرسل حملة إلى مغول فارس بني عمومته لتأديب من تسبب فى مقتل سلطانها المسلم أحمد تكودار (٦٨١- ٦٨٣هـ/ ١٢٨٢- ١٢٨٤م) المعاصر له[٢].

حرص تودان كل الحرص على إتباع الشعائر والتقاليد الإسلامية لدرجة أنه ترك قيادة الدولة لقواده وأمرائه، وقصر حياته على التعبد والزهد الشديد، ومصاحبة الصوفية والأولياء الصالحين، وبلغ به الأمر حد التنازل عن العرش لابن أخيه، تلابغا بن منكوتيمور حتى يتفرغ تماماً لما اختاره لنفسه من حياة الزهد والتصوف[٣].

---

(١) برتولد شبولر، العالم الإسلامى فى العصر المغولى، ص٩٤، ٩٥؛ وانظر أيضاً رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١١٥.

(٢) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١١٩- ١٢٠.

(٣) العينى، عقد الجمان، ج٢، ص٣٦١؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٤٢؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٣٨؛ ابن خلدون، العبر، م٥، ص١١٣٥.

لم يعمر تلابغا (٦٨٦-٦٩٠هـ/١٢٨٧-١٢٩١م) فى الحكم طويلاً إذ واجهته عدة مشكلات من جانب منافسيه على العرش، انتهت بقيام حرب أهلية، والتآمر على هذا الخان واغتياله فى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م واعتلاء ابن عمه طقطاى العرش[١]. ولم يعتنق طقطاى (٦٩٠-٧١٢هـ/١٢٩١-١٣١٢م) الإسلام وظل يدين بالشامانية[٢] حتى مات عليها، إذ لم يظهر من نقش عملته أنه اعتنق الإسلام ومع ذلك أظهر ميلاً واضحاً تجاه المسلمين، وكان طقطاى بشهادة المؤرخين[٣] يكرم المسلمين ويعظمهم أكثر من جميع الطوائف؛ فيه عدل وميل إلى الإسلام، لذلك سارت الحركة الإسلامية قدماً إلى الأمام فى عهده، فقد كان جل جيشه من المسلمين بل أن قائده نوغاى كان مسلماً كما سبق أن ذكرنا- كما أن ابن طقطاى اعتنق الإسلام، وكان يحب سماع القرآن وإن لم يفهم معانيه،وكان ينوى إن ملك البلاد بعد أبيه ألا يترك فيها ديناً غير الإسلام، ولكنه مات فى حياة أبيه[٤].

حافظ طقطاى على علاقة الصداقة التى كانت تربط دولته بسلطنة المماليك

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: العينى، عقد الجمان ج٢، ص١٠٦- ١٠٩؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٦٤- ٢٦٦؛ المقريزى، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٧٥- ٧٧٦؛ ابن خلدون، العبر، م٥، ص١١٣٦.

(٢) وهى ديانة المغول الأولى، ووفقاً لها كان المغول يعبدون كل شئ يسمو عن مداركهم، وكل ما يرهبهم ويخيفهم؛ وذكر المقريزى أنه كان يعبد الأصنام على دين الجشية وهى طائفة تدين بالرهبانية والفقر والسحر، انظر : السلوك،ج٢، ق١، ص١٣٧.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، تحقيق محمد النجار، ص٤٤٩؛ ابن الوردى، تاريخ ابن الوردى، ج٢، ص٢٦٢؛ الحنبلى؛ شذرات الذهب، ج٦، ص٣١، الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥٠٠.

(٤) ابن الوردى، تاريخ، ج٢، ص٢٦٢؛ الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥٠٠؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٢.

فى مصر أكبر قوة إسلامية فى ذلك الحين، ففى عام ٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م وصل رسول الملك طقطاى ويدعى قرمجى ومعه آخرون إلى بلاط السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ومعه جوار كثيرة ومماليك، وهدية سنية للسلطان، ورسالة يدعوه فيها للتعاون سوياً من أجل قتال مغول فارس إذ جاء فيها " إننا قد سيرنا إلى خدا بنداه ... وقد عزمنا على الركوب إليه، فتجمع عساكرك وتدخل من قبلك ونحن من قبلنا، ونجتمع نحن وأنتم على طردهم من البلاد، ونكون نحن وأنتم يداً واحدة، حيث ما وصلت خيلنا من البلاد فهو لنا، وحيث ما وصلت خيلكم من البلاد فهو لكم"[1].

أحسن السلطان الناصر محمد استقبال رسول طقطاى، وأكرمه غاية الإكرام وأنزله بمنظرة الكبش[2] فى خير مقام، ثم أرسل السلطان رسلاً من قبله إليه بأنواع التحف والهدايا، ومن هؤلاء الرسل: الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي، وكان يحمل رد السلطان على رسالة طقطاى، وينقل له تحيات الملك الناصر محمد، وشكره الخالص، لأنه بفضل اتحادهما، سارع خدابنداه بطلب الصلح من الناصر محمد. وكان بصحبة الأمير سيف الدين بلبان كل من الأمير سيف الدين بلبان الحكيمى، وفخر الدين الشمسى، وقد عاد هؤلاء جميعاً إلى مصر فى عام ٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م[3].

---

(١) ابن أيبك الدوادارى، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس رويمر، القاهرة ١٩٦٠، ص١٢٨؛ العينى، عقد الجمان، ج٤، ص٣٤٥.

(٢) قصر عظيم على جبل يشكر بجوار الجامع الطولوني.

(٣) بيبرس الدواداري، زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٦١؛ المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص٧، ٢٧-٢٨؛ العينى، عقد الجمان، ج٤، ص٣٤٥- ٣٤٦، ٤٢١- ٤٢٢؛ وانظر أيضاً حياة ناصر الحجى، العلاقات، ص٢٠.

استمر تبادل السفراء بين طقطاى والناصر محمد بن قلاوون وأظهر كل منهما حرصاً شديداً على استمرار علاقات المودة مع الآخر[١]. وكان الناصر محمد يهدف من وراء استمرار علاقات المودة مع طقطاى تحويل هذا الخان إلى الإسلام، لتعود دولة مغول القبجاق سيرتها الأولى دولة إسلامية، قائمة فى أساسها على أحكام الشريعة الإسلامية، ومن أجل ذلك توافد علماء مصر وفقهائها على سراى، وقام السلطان الناصر محمد بتعمير المسجد الجامع بمدينة القرم على نفقته الخاصة كما ذكر ابن بطوطة[٢]. وذلك فى محاولة منه لإحياء الشعائر الإسلامية فى بلاد القبجاق. وما لبث أن تحقق أمل الناصر محمد إذ توفى طقطاى ٧١٣هـ/ ١٣١٣م وخلفه على العرش أوزبك الذى يعد عصره العصر الذهبى للإسلام فى دولة مغول القبجاق، فقد اكتمل انتشار الإسلام فى عهده، وقضى على كل ما يناوئه، وأصبح الدين الرسمى للدولة وبصفة نهائية على نحو ما سنرى.

الإسلام فى أوج عظمته فى حوض الفولجا فى عصر أوزبك (٧١٢- ٧٤٢هـ/ ١٣١٣ - ١٣٤٢م) :

يعد عصر أوزبك العصر لذهبى للإسلام فى دولة مغول القبجاق لأنه جعل الإسلام دين الدولة الرسمى بصف نهائية، وقضى على كل ما يناوئ الإسلام فى بلاده حتى تعاقب على حكمها من بعده حكام مسلمون، وقضى بذلك على كل أمل للمسيحية الشرقية والغربية وعلى آمال البوذية والشامانية بصورة تامة وأظهر تحمساً ونشاطاً زائداً عمن سبقوه لنشر الإسلام داخل بلاده وخارجها[٣].

(١) المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص١٠١- ١٠٢.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢١٥.

(٣) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام بين المغول، ص١٢٣.

اختلفت الروايات حول الوقت الذى أسلم فيه أوزبك، فتذكر إحداها أنه أسلم فى شبابه وقبل توليه عرش خانية القبجاق، على يد أربعة من الفقهاء الفرس وهم: سيد شيخ محمد، والشيخ قولقات، والشيخ أحمد، والشيخ حسن قرقان(١). هذا فى حين يذكر ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) أنه لما هلك طقطاى بايع نائبه قطلتمر لاوزبك ابن أخيه بإشارة الخاتون تنوفالون زوج أبيه،وعاهده على الإسلام، فأسلم واتخذ مسجداً للصلاة"(٢). ويؤكد ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤هـ) رواية ابن خلدون إذ يذكر أن أزبك أسلم لما ملك وحسن إسلامه"(٣). ويذكر ابن تغرى بردى فى موضع آخر وكان الذى أعان أزبك خان على السلطنة شخص من أمرائهم من المسلمين يقال له قطلقتمر كان على تدبير ممالكهم"(٤).

يلاحظ أن الرواية الأولى تذكر أن إسلام أوزبك كان فى شبابه، فى حين أن الرواية الثانية تذكر أنه أسلم وقت ارتقائه العرش، كذلك اختلفت الروايتان فى تحديد صاحب الفضل فى دخوله الإسلام، وقد اختلف معهما ابن أيبك إذ يذكر فى حوادث سنة ٧٢٠هـ عند ذكره قدوم الآدر الشريفة بنت أخى أوزبك إلى مصر "وكان بصحبتها قاضى يسمى نور، قالوا أن هذا القاضى هو الذى أهدى الملك أوزبك إلى الإسلام"(٥). هذا فى حين يسوق بارتولد رواية ثالثة تذكر أن الشخص الذى هدى أوزبك إلى الإسلام وسماه محمد أوزبك خان، هو الشيخ سيد اتا

---

(١) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، م٥، ص١١٣٩.

(٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج١، ص٣٤٣؛ وانظر أيضاً ابن حجر العسقلانى، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، ج١، ترجمة رقم ٨٧٨، ص٣٧٦.

(٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٢٦.

(٥) ابن أيبك، الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ص٣٠٢.

التركستانى المدفون بطشقند، ويتابع فيذكر وكان ذلك فيما يقال فى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢١م. ولابد من أخذ هذه الرواية بحذر لسببين:

أولهما : يتعلق باسم الشيخ الذى اعتنق أوزبك على يده الإسلام فقد ذكرت الرواية الأولى السابق ذكرها أنه اعتنق الإسلام على يد أربعة من الفقهاء الفرس، هذا فى حين تذكر رواية ابن أيبك الدوادارى (ت بعد ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) وهو مؤرخ معاصر أن أوزبك اعتنق الإسلام على يد قاضى يسمى نور، وقد قدم هذا القاضى إلى مصر بصحبة ابنة أخت أوزبك فى عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢١م.

ثانيهما : حدد بارتولد- وإن كان يشك فى الأمر- عام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م تاريخاً لدخول أوزبك فى الإسلام، وهذا أمر غير معقول، وذلك لأنه عاهد نائبه قطلتمر على الإسلام فور تولية العرش عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣م، كما ذكر ابن خلدون، ويؤكد ذلك مؤرخ معاصر آخر وهو النويرى (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) إذ ذكر فى رسالة أرسلها أوزبك إلى الناصر محمد فور توليه العرش جاء فيها:" أنه كان قد بقى فى مملكته طائفة على غير دين الإسلام، فلما ملك خيرهم بين الدخول فى دين الإسلام أو الحرب، فامتنعوا وقاتلوا، فأوقع بهم وهزمهم، واستأصل شأفتهم بالقتل والأسر، وجهز إلى مولانا السلطان عدة من سباياهم"(١). وهذا يعنى أنه كان قد اعتنق الإسلام من قبل ولكن لم يكن بامكانه الوقوف فى وجه الوثنيين إلا بعد توليه العرش.

على أية حال أراد أوزبك خان من البداية، أن يجعل من نفسه ومن أسرته مثالاً يحتذى به كافة المغول فى حبهم للإسلام والإخلاص له، والعمل على نشره

(١) النويرى، نهاية الإرب، ج٢٧، ص٣٧٥؛ وانظر أيضاً: المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص١٤٥.

وتطبيق تعاليمه، لذلك تمسك الخان بالشريعة الإسلامية وحافظ على الصلاة، وداوم على الصيام فتصفه المصادر[1]: "بأنه سلطان مسلم، حسن الإسلام، محافظ على إقامة الصلاة، ومداومة الصيام مع قربه من رعاياه والقاصدين له".

كذلك حرص أوزبك على الاستماع إلى القرآن الكريم وتلاوته فى مجلسه، كما حرصت زوجته على المواظبة على قراءة القرآن فيذكر ابن بطوطة عند دخوله على حضرة السلطان محمد أوزبك والخاتون الكبرى "وكان فى جملة أصحابى قارئ يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب، فقرأ" ثم دخل ابن بطوطة على الخاتون الثانية فوجدها تقرأ فى المصحف الكريم ويقول: ".. فسلمنا عليها، وأحسنت السلام والكلام، وقرأ قارئنا فاستحسنته.."[2].

نفذ أوزبك تعاليم الإسلام بشأن زوجاته، فلم يتخذ سوى أربع، كما تقضى الشريعة الإسلامية بذلك، وحرص على أن يعدل بينهن ويقيم لدى كل واحدة منهن يوم، وقد تحدث كل من العمرى والقلقشندى عن عدله معهن فذكرا "أنه يركب كل يوم إلى امرأة منهن، ويقيم ذلك اليوم عندها، ويأكل من بيتها ويشرب، وتلبسه بدلة قماش كاملة، ويخلع التى كانت عليه من اللبس على ممن يتفق ممن حوله"[3].

تلقب أوزبك خان بألقاب إسلامية وأسماء عربية، فلقب نفسه "بالملك

(١) العمرى،مسالك الأبصار، السفر الثالث، مخطوط مصور، ورقة ٨٤؛ القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧٤.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٢٣.

(٣) العمرى، مسالك الأبصار، مخطوط مصور، السفر الثالث، ورقة ٨٤، القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٧٦.

المظفر غياث الدين السلطان محمد أوزبك خان" وتلقب ابنه جانى بك" بالسلطان جلال الدين أبوالمظفر محمود جانى بك"[١]. كما اتخذ أوزبك لنفسه زياً إسلامياً، بمعنى أنه حرم على نفسه لبس الحرير، واتخاذ الذهب، لتزيين أى قطعة من ملابسه فيذكر ابن تغرى بردى "ولم يلبس أوزبك خان بعد أن أسلم السراقُوجات[٢]، وكان يلبس حياصة[٣] من فولاذ ويقول: "لبس الذهب حرام على الرجال"[٤].

اهتم أوزبك خان بتنشئة أبنائه تنشئة دينية، فأسند تربية ابنه وولى عهده جان بك إلى السيد الشريف بن عبدالحميد، حتى يشب على الإسلام، وينشأ نشأة دينية طيبة؛ كما أن ابنته ايت كججك كان تتصف كما يذكر ابن بطوطة " بالمكارم وحسن الأخلاق ما لم نره من سواها". وذكر ابن بطوطة أيضاً أنه كان لا يتم انعقاد مجلسها إلا بحضور الفقهاء والقضاة والسيد الشريف عبدالحميد وطلبة العلم والمشايخ[٥].

وقد حرص مغول القبجاق على أداء الشعائر الدينية، والتمسك بتعاليم الإسلام، فقد ذكر الرحالة الإيطالى طافور، الذى زار بلادهم خلال القرن التاسع

---

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص٤٠٤، ٥٠٢، ٥٤٧؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٥- ١٢٦، ١٤٧.

(٢) السراقوجات، جمع سراقوج وهى طاقية تترية كان يلبسها ملوك التتار فى العصور الوسطى. انظر ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص٧٤، حاشية ٢؛ الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص٥١٢.

(٣) الحياصة جمعها حوائص، وهى الحزام أو المنطقة.

(٤) النجوم الزاهرة ،ج١٠، ص٧٤؛ المنهل الصافى، ج١، ص٣٤٣.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٢٤.

الهجرى / الخامس عشر الميلادى "وهم لا يأكلون الخبز حيث لا يوجد عندهم منه شئ، بل هم يقتصرون فى طعامهم على خليط من الأرز ولبن الجمال ولحم الخيل، ولا يقربون أى نوع من أنواع الخمور لإتباعهم الإسلام"(١). وكانوا يصومون رمضان ويحتفلون بالأعياد الإسلامية ومنها عيد الفطر وحضر ابن بطوطة عندهم صلاة عيد الفطر، وتصادف أن كان يوم العيد يوم جمعة، فحضر الصلاتين، ووصف مظاهر الاحتفال بهذا العيد فذكر:" ولما كان صباح يوم العيد، ركب السلطان فى عساكره العظيمة، وركبت كل خاتون عربتها، ومعها عساكرها، وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها... وركب أولاد السلطان كل واحد فى عساكره. وحضر صلاة العيد قاضى القضاة شهاب الدين السايلى، ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ... وقد ركب هؤلاء مع ولى عهد السلطان، ومعهم الطبول والأعلام، فصلى بهم القاضى شهاب الدين، وخطب أحسن خطبة. كما حضر الصلاة أيضاً سبعة عشر أميراً طومان، والأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف، فكان الحاضرون، من الجنود مائة وسبعين ألفاً، ويذكر ابن بطوطة وعسكر السلطان أكثر من ذلك(٢). مما يظهر مدى عظمة الإسلام وقوته وكثرة من دخله فى بلادهم.

حرص أوزبك كل الحرص على نشر الإسلام وتعاليمه فى بلاده، وتحويل من بقى من المغول القبجاق على وثنيته إلى الإسلام، وأظهر فى هذا الصدد تحمساً شديداً، وبذل من أجله جهداً شاقاً، ولكن هذا الأمر لم يكن من السهولة بمكان إذ تحرش به بعض أمراء المغول، الذين ظلوا على وثنيتهم قائلين له : " اقنع

---

(١) رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٣٨.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٢٦.

بطاعتنا، وماذا يهمك من أمر ديانتنا؟ ولماذا نترك دين جنكيز خان لنعتنق دين العرب؟[١] ولما لم يسلم أوزبك بما قالوا، دبروا للتخلص منه، وتآمروا على قتله، ولكنه علم بهذه المؤامرة، وقبض على المتآمرين وأتباعهم، وأعدمهم، وبذلك اجتث البقية الباقية من الوثنية المغولية، وأصبح مطلق اليدين فى نشر الإسلام بين المغول وغيرهم من الشعوب، التى خضعت لسلطانه. وقد عبر ابن كثير عن ذلك بقوله: "كان أوزبك مسلماً، فأظهر دين الإسلام ببلاده، وقتل خلقاً من أمراء الكفرة وعلت الشرائع المحمدية على سائر الشرائع هناك. ولله الحمد والمنة على الإسلام والسنة"[٢].

أكد الرحالة طافور على اتساع دولة مغول القبجاق فى عهد أوزبك، وبالتالى انتشار الإسلام فى مساحات واسعة من الأرض فذكر:" ويمتد سلطان الإيلخان الأعظم على قطر فسيح الأرجاء"[٣].

صاحب انتشار الإسلام فى بلاد القبجاق، فى عهد أوزبك، انتشار اللغة العربية فأداء الشعائر الدينية، وقراءة القرآن، لابد وأن تؤدى باللغة العربية، ومن ثم فقد تعلم كثير من المغول هذه اللغة وقرأوا بها القرآن الكريم، وخطب الخطباء بها فى مساجدهم، واتخذت احتفالاتهم كذلك طابعاً عربياً دينياً، فكان يقرأ فيها القرآن الكريم بالأصوات الحسان كما يذكر ابن بطوطة، وينصب منبر ويصعده الواعظ، وتجلس القراء بين يديه، ثم يخطب خطبة بليغة، ويدعو فيها للسلطان وللحاضرين.. ويقول ذلك بالعربية، ثم يفسره لهم بالتركية، وفى أثناء ذلك يكرر

---

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧١.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، م٧، ص٤٥٠.

(٣) رحلة طافور، ص١٣٨.

القراء آيات من القرآن الكريم بترجيع عجيب كما يروى ابن بطوطة[١].

وكان طبيعياً أن تنتشر الثقافة الإسلامية فى عهد أوزبك انتشاراً كبيراً لاهتمامه بنشر الإسلام واللغة العربية فى بلاده، وقد تمثلت فى إنشاء المؤسسات التى تعمل على نشر العلم والدين، كالزوايا والربط والمساجد والمدارس، سواء فى العاصمة سراى أم فى غيرها من النواحى والمدن التابعة للسلطان أوزبك، فغطت الزوايا والربط كل مدينة وقرية فى بلاد القبجاق، بل حفلت المدينة الواحدة بالعديد من الزوايا، التى تتبع كل منها أحد الصالحين والمشايخ أو الأمراء والخواتين[٢]. وقد تحدث ابن بطوطة عن عدد من هذه الزوايا ومنها زاوية الفقيه الإمام العالم نعمان الدين الخوارزمى[٣] بمدينة سراى حاضرة أوزبك، وزاوية الصالح الحاج نظام الدين، الذى استضافه بها وأكرمه هو ومن معه. وغيرها من الزوايا التى حفلت بها بلاد القبجاق[٤].

أما عن المساجد فقد ازدحمت بها مدينة سراى الواقعة على نهر الفولجا – فى عهد أوزبك إذ يذكر ابن بطوطة أن بها وحدها "ثلاثة عشر مسجداً لإقامة الجمعة، أحدها للشافعية؛ وأما المساجد سوى ذلك فكثيرة جداً[٥]. واهتمت الخاتون ترابك زوجة أوزبك كذلك بتعمير المساجد، فيذكر ابن بطوطة أنها عمرت المسجد

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢١٨، ٢٢٣؛ وانظر أيضاً: رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٥٧.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بطوطة، تحفة الأنظار، ص٢١٥، ٢١٦، ٢١٧

(٣) الشيخ نعمان الدين الخوارزمى زار القاهرة عام ٧١٨هـ، وأقام بها أياماً، ثم حج من هناك، وعاد إلى القاهرة ثانية، وأقام بها سنة ثم عاد إلى أوزبك، ودرس المنطق والجدل والطب، واحتل مكانه مرموقة عند أوزبك. انظر الرمزى، تلفيق الأخبار، ج٢، ص٣٠.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار،ص ٢٣٨.

(٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٣٩= ٢٤٠، ٢٤٢.

الجامع فى خوارزم[١]. ويلاحظ هنا اهتمام مغول القبجاق بإقامة المساجد الجامعة، مما يظهر مدى حرصهم على تأدية صلاة الجماعة لما لها من ثواب عظيم، وكان المتقاعسون عن أدائها يتعرضون للعقاب على يد إمام المسجد، فقد كان المؤذنون فى بعض مدن الفولجا، يطوف كل واحد منهم على الدور والمنازل المجاورة للمسجد، يخبر سكانها بضرورة حضور صلاة الجماعة ، ومن لم يفعل ذلك، كان يُحضر أمام المصلين، ويقوم الإمام بضربه بدرة ، كانت معلقة بالمسجد لهذا الغرض، علاوة على تغريمه خمسة دنانير، تنفق فى صالح المسجد، وفى إطعام الفقراء والمساكين[٢].

كانت المساجد فى الغالب تقوم بدور المدارس فى تلك العصور، لذلك تبارى الأمراء والخواتين فى إقامتها، رغبة منهم فى نشر الإسلام والثقافة الإسلامية، ولكن هذا لم يمنع من إقامة مدارس للعلم فى سراى وفى غيرها إذ يذكر العمرى "وقد بنى بها (سراى) سلطانها القائم بها الآن (عصر المؤلف) أوزبك خان مدرسة للعلم، وهو معظم لجانب العلم وأهله"[٣].

وكان للفقه ومذاهبه المختلفة مدارس فى حوض الفولجا وبلاد المغول، وكان له معلمون ومدرسون ومساجد معينة، تختص كل منها بتدريس مذهب معين، ففى مدينة سراى كان للشافعية والمالكية والحنفية مدارس خاصة، تدرس كل مذهب منها، وكان بها المدرسون والفقهاء المختصين بتدريسها، فذكر ابن بطوطة وبها أى بسراى من مدرسى الشافعية الفقيه الإمام الفاضل صدر الدين

---

(١) ابن بطوطة ، تحفة النظار، ص٢٣٧.

(٢) ابن بطوطة ، تحفة النظار، ص٢٣٩.

(٣) العمرى، مسالك الأبصار، السفر الثالث، مخطوط مصور، ورقة ٨٤.

سليمان اللكز أحد الفضلاء، وبها من المالكية شمس الدين المصرى[١]. كذلك كان هناك القضاة الذين يتبعون هذه المذاهب والتقى بهم ابن بطوطة ومنهم قاضى الحنفية شمس الدين السائلى، والقاضى الشافعى ويسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الأصى[٢].

احتل العلماء والفقهاء والمدرسين مكانة متميزة وحظوا باحترام كبير فى بلاط أوزبك وفى بلاده، فقد تواضع لهم، وخاصة للشيخ نعمان الدين الخوارزمى، وكان من فضلاء المشايخ، حسن الأخلاق، كريم النفع، شديد التواضع. وكان أوزبك يزوره كل يوم جمعة، ويقعد بين يديه، ويكلمه ألطف الكلام، ويتواضع له كما يروى ابن بطوطة[٣]. وقد سار الحكام والأمراء على نهج أوزبك فى احترام العلماء والفقهاء والصالحين وتبجيلهم. لذلك لا عجب أن امتلأت بلاد مغول القبجاق وحوض الفولجا بالعلماء والفقهاء، وقد التقى ابن بطوطة هناك بعدد من فقهاء خوارزم، منهم الشيخ نور الإسلام، والشيخ نور الدين الكرمانى، وهو من كبار الفقهاء وقال عنه ابن بطوطة " هو الشديد فى أحكامه القوى فى ذات الله تعالى"[٤].

وامتلأت سراى بالعلماء الوافدين إليها، والمقيمين للتدريس فى مدارسها، ومنهم الشيخ نجم الدين عبدالرحيم عبدالرحمن الموصلى المعروف بابن النجام (ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، والشيخ كمال الدين الخجندى، وكان من أكابر الصوفية،

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٣٨.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢١٥.

(٣) تحفة النظار، ص٢٣٨.

(٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٤٠.

وقد أقام فى سراى ثم عاد إلى تبريز وتوفى بها (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، والعلامة سعد الدين التفتازانى (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) والعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم الشهير بعرب شاه الدمشقى صاحب كتاب " عجائب المقدور في أحوال تيمور "، وغيرهم من العلماء والمتصوفة والفقهاء والأدباء، الذين ازدحمت بهم العاصمة سراى " مجمع العلم ومعدن السعادات " مما يظهر مدى انتشار العلم والثقافة الإسلامية فى حوض الفولجا[١].

أفاض أوزبك من خيره وبره على العلماء والفقهاء والصالحين والمتصوفة الشئ الكثير، فغمرهم بالهدايا والهبات والعطايا سواء أن كانت مادية، أم فى شكل اقطاعات من الأرض، من ذلك أنه منح حاج من الصالحين تركى موضعاً محرراً من المغارم يعرف باسم ترخان، فصار قرية ثم عظمت فأصبحت مدينة ونسبت إليه وعرفت باسم "مدينة الحاج ترخان" وقد زارها ابن بطوطة وذكر " أنها من أحسن المدن، عظيمة الأسواق، مبنية على نهر اتل (الفولجا) وهو من أنهار الدنيا لكبار"[٢]. وقد أصبحت هذه المدينة من أشهر مراكز الثقافة الإسلامية فى بلاد القبجاق.

وحرص أوزبك على توطيد علاقات الصداقة والمودة التى تربطه بجيرانه المسلمين، خاصة مع سلطنة المماليك فى مصر والشام، وذلك من أجل تعميق روح الأخوة الإسلامية والروابط الدينية فيذكر العمرى "ومازال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتحاد، وصدق وداد من أول الدولة الظاهرية بيبرس

(١) انظر الرمزى، تلفيق الأخبار، ج٢، ص٤٧- ٤٩؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٥٤، بهيرة محمد غلاب، مغول القبيلة الذهبية، ص٢٣٩.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص٢٢٨.

وإلى آخر وقت"[١]. وقد ظهر هذا الاتحاد والوداد فى دوام تبادل الرسل بين الطرفين وفى ارتباطهما برباط المصاهرة فى عهد أوزبك، فما أن تولى العرش حتى بادر بإرسال سفارة إلى الناصر محمد بن قلاوون يخبره فيها باعتناقه للإسلام وانتشاره فى بلاده، وامتداد هذا الانتشار إلى حدود الصين. فقد ذكر المقريزى فى حوادث عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م أن أوزبك بعث برسل إلى بلاط الناصر محمد بن قلاوون قائلاً: "قدم الأمير سيف الدين الخاص تركى وزين الدين قراجا الخازندار ومعهم رسل الملك أوزبك وأخبروا بإسلامه ومعهم هدية، فأكرم السلطان الرسل، وكتب جوابه وسفرهم، وبعث معهم الأمير علاء الدين ايدغدى الخوارزمى بهدية"[٢].

توالى تبادل الرسل ففى العام التالى ٧١٦هـ/ ١٣١٦م قدمت رسل أوزبك إلى بلاد الناصر محمد، وأرسل الناصر بدوره سفارة إلى أوزبك سافر فيها الأمير علاء الدين ايدغدى الخوارزمى ومعه حسين بن صاروا أحد مقدمى الحلقة بالهدية، وقد فصل المقريزى لهذه الهدية[٣].

وعمقت المصاهرة الروابط الدينية والإسلامية بين سراى والقاهرة، فأرسل الناصر محمد بن قلاوون سفارة على رأسها ايدغدى إلى أوزبك يطلب منه أن يزوجه إحدى بنات ملوك البيت الجنكيزخاني، وجاءت رسل أوزبك فى عام ٧١٧هـ/ ١٣١٧م تخبر بشروط الخطبة[٤]. وسرعان ما وصلت العروس فى ٢٥

(١) التعريف بالمصطلح الشريف، بيروت ١٩٨٨، ص٧٠، وانظر أيضاً القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٥١.
(٢) السلوك، ج٢، ق١، ص١٤٥.
(٣) السلوك، ج٢، ق١، ص١٦٣، ١٦٤.
(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذه الشروط انظر: المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص١٧٤، ٢٠٣- ٢٠٥.

من ربيع الأول ٧٢٠هـ/ مايو ١٣٢٠م، ووصل معها الأمير سيف الدين أطرجى من عند بلاد أوزبك وصحبته الادر الشريفة بنت أخى أوزبك، وحضر معها جمع كبير ومعهم أيضاً رسل من جهة الملك أوزبك[١].

وكان معهم كتاب من أوزبك للناصر محمد جاء فيه :" أخوك أوزبك، أنت سيرت طلبت من عظم القان بنتاً ... وقد سيرنا لك من بيت كبير، فإن أعجبتك خذها بحيث لا تخلى عندك أكبر منها، وإن لم تعجبك فاعمل بقول الله تعالى :"إن الله يأمركم بأن تأدوا الأمانات إلى أهلها" فرد السلطان: " نحن ما نريد الحسن، وإنما نريد كبر البيت والقرب من أخى، ونكون نحن وإياه شيئاً واحد"[٢]. يتضح من هذا الخطاب أن الناصر محمد كان يهدف من وراء هذا الزواج تحقيق التقارب بين البلاطين المملوكى والقبجاقى، بحيث تصبح البلدان بلداً واحداً مشترك المصالح والأهداف، يتعاونا سوياً من أجل تحقيق المنافع الجليلة لكلتيهما[٣].

ما أن علم الناصر بوصول العروس وتدعي طلنباى أو طلنباش[٤] بنت طغاى بن باتو إلى الإسكندرية، حتى أمر بأن يحتفل بقدومها، وهيأ لها استقبالاً رسمياً كبيراً، وتلقاها الناصر بالبشر والترحاب، وإكرام الوفد المصاحب لها، وفى اليوم الثالث لوصولها عقد قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة العقد على ثلاثين ألف دينار بين مظاهر الفرح والابتهاج، وأقيمت الأسمطة ثلاثة أيام، وصعدت العروس إلى القلعة[٥].

---

(١) ابن أيبك، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ص٣٠٢.
(٢) المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠٤- ٢٠٥؛ ابن أيبك، الدر الفاخر، ص٣٠٣- ٣٠٤.
(٣) حياة ناصر الحجى، العلاقات، ص٣٧.
(٤) ويسميها ابن حجر طولو بنت طغاى، انظر ترجمتها فى الدرر، ج٢، ص٣٢٩- ٣٣٠.
(٥) ابن خلدون، العبر، ج٥، ص٩٢٦؛ ابن تغرى بردى، المنهل، ج٢، ص٣٤٤؛ المقريـزي، السلوك،ج٢، ق١، ص٢٠٥.

ما لبث الناصر محمد أن أعاد رسل أوزبك بعد أن جهزهم بالهدايا، وبعث معهم الأمير سيف الدين طقصباى رسولاً من عنده إلى بلاد أوزبك خان وعاد رسول الناصر محمد ومعه رسل أوزبك[١]. مما يدل على استمرار تبادل الرسل والسفارات بين الجانبين وبالتالى استمرار علاقات الصداقة والمودة كذلك استمر تبادل الرسل والهدايا خلال أعوام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م، و ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م، ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م[٢]، وفى عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م أرسل أوزبك كتاب إلى الناصر يطلب منه مصاهرته[٣]. وبذلك استمرت الصلات والمصاهرات والعلاقات الطيبة بين البلدين.

وظل حكام القبجاق ومصر يحرصون على تدعيم روابط الأخوة الإسلامية مع حكام مصر، فيذكر القلقشندى " ولم تزل ملوكهم ... محافظين على تتابع الرسل ... مثابرين على توارد الكتب..."[٤].

ساهم طلاب العلم والعلماء والفقهاء فى توطيد أواصر الصلات بين الدولتين، فيتحدث ابن بطوطة عن الفقهاء المصريين الذين عاشوا فى مدينة سراى ومنهم (شمس الدين المصرى) وهو من فقهاء المالكية، هذا فضلاً عن انتشار المذهب الشافعى بين أهل سراى وباقى مدن دولة مغول القبجاق،وقد وصل هذا المذهب إلى تلك البلاد من مصر، فهى مهد هذا المذهب، ومنها انتشر إلى الشرق والغرب. لذلك لا عجب أن انتشر قضاة الشافعية فى تلك المدن ففى القرم

(١) المقريزى، السلوك، ج٢، ق ١، ص٢٣٦.

(٢) ابن أيبك، الدر الفاخر، ص٣١٥؛ اليوسفى، نزهة الناظر فى تاريخ الملك الناصر، ص٢٣٥، ٣٧٩؛ المقريزى، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٩٦، ٣٩٨، ٤٢٣.

(٣) المقريزى، السلوك، ج٢،ق١،ص٤٥٨؛ وانظر أيضاً: حياة ناصر الحجى، العلاقات، ص٤٢- ٤٤.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٧، ص٣٠١؛ وانظر أيضاً صفحات ٢٩٥- ٢٩٧، ٢٩٨.

التقى ابن بطوطة بأحد قضاة الشافعية ويدعى بخضر وبخطيب الشافعية ويدعى أبابكر[1]. وكان لهم دورهم فى نشر الإسلام وتعاليمه بل ونشر الثقافة الإسلامية بين مغول القبجاق.

ومع حرص أوزبك على الإسلام والعمل على نشره فى جميع أنحاء بلاده والارتباط بعلاقات المودة والصداقة مع القوى الإسلامية المجاورة وخاصة مصر إلا أنه مع ذلك أظهر تسامحاً تجاه رعاياه من المسيحيين، فقد منحهم الحرية التامة فى إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لأحد منهم بسوء، بل وذهب بتسامحه معهم إلى أبعد من ذلك فسمح لهم بالاستمرار فى التبشير بدينهم ونشره فى بلادهم[2]. ومن مظاهر تسامحه الدينى أيضاً ذلك العهد الذى منحه للمطران بطرس - رئيس الطائفة المسيحية فى بلاده - عام ١٣١٣م والذى يؤكد فيه تسامحه مع المسيحيين وتقديره للمسيحية وقد أورد أرنولد نصه كاملاً[3]. وقد جاء فيه ما يلى :

أولاً : أن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسها بسوء.

ثانياً : لا يستولى أحد على شئ من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها ولا يتدخل فى أمورها لأنها مقدسة كلها.

ثالثاً : أن من يتعدى عليها فهو أثيم أمام الله وجزاؤه القتل.

---

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار؛ ص٢١٥، ٢٣٨؛ وانظر أيضاً: رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٧٠.

(٢) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧١.

(٣) أرنولد، الدعوة، ص٢٧٢- ٢٧٣؛ وانظر أيضاً الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥٣٧- ٥٣٨.

رابعاً : منح أوزبك مطران الكنيسة الأمان، والحرية فى تنظيم الأمور الكنسية بقلب سليم وفؤاد عادل قويم.

خامساً : أعلن أوزبك عدم تدخله هو وأولاده وأمراء دولته وولاة أقاليمه بأى حال من الأحوال فى شئون الكنيسة، ولا فى شئون مطرانها أو ممتلكاتها.

سادساً : عدم إجبار المسيحيين أو إكراهم على التجنيد الإجبارى وخاصة من رجال الدين التابعين للمطران بطرس.

سابعاً : أن تكون شرائعهم وكنائسهم وديارهم محل احترام وتعظيم، ومن يخالف ذلك يكون جزاؤه القتل.

وقد وضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ، ولم يكن مجرد حبر على ورق، بدليل أن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦-١٣٣٤م) أرسل رسالة إلى الخان أوزبك فى عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م) يشكر فيها الأمير المسلم لما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويثنى على هذه المعاملة الطيبة التى عاملهم بها أوزبك[1].

نعم رجال الدين المسيحى فى ظل التسامح الدينى بنفس الامتيازات التى تمتع بها مشايخ المسلمين، ومنها الإعفاء من الضرائب الذى أمسى حقاً مكتسباً للكنائس والأديرة، فقد حدث ذات مرة أن شرع بعض النواب فى البلاد الروسية فى أخذ الخراج من أملاك الكنيسة وأوقافها مع كونها معفاة، فتوجه المطران إلى أوزبك وشكاهم إليه، فأصدر أوزبك مرسوماً جاء فيه"... أن كافة.... القساوسة والرهبان من النصارى وغيرهم والكنائس والمعابد الكائنة بالروسية وغيرها وما

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٣.

يتعلق بها من الأملاك والأوقاف محررة معفاة من الخراج والتكاليف الميرية لا يتعرض لها..."[١].

ورغم التسامح الدينى فى عهد أوزبك إلا أن الإسلام فى عهده انتشر فى جنوب البلاد الروسية وفى سيبريا، وأمتد من مصب الفولجا وحتى نوفجورد مع امتداد إلى الغرب حتى القرم، ومن ثم فقد وصل انتشار الإسلام فى عهده إلى القمة حيث عم المدن والريف والصحراء، ومن ثم لا عجب أن سمى عصره بالعصر الذهبى للإسلام[٢]. فقد وصل الإسلام فى عهده أوج مجده وعظمته. وظل الإسلام يمضى قدماً فى عهد السلطان جلال الدين محمود جانى بك ابن أوزبك وخليفته على العرش (٧٤٢هـ/-٧٥٨هـ/١٣٤٢-١٣٥٧م) فقد أصر هذا الخان على أن يلبس جميع المغول فى مملكته عمائم وفرجيات، كما يلبسها أهل الإسلام فى مصر والشام، ولم يكن للمغول من قبل عادة بلبس هذا الزى[٣]. كما أنه أظهر حبه للعلماء وحضر مجالسهم،وصارت بلاده مأوى لهم بل وامتلأت بهم، كما حافظ على سياسة آبائه وأجداده فى مراسلة سلطان مصر تعميقاً لروح الأخوة الإسلامية بين البلدين، فما أن تولى العرش حتى أرسل رسل وهدية لصاحب مصر فى عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣م[٤]. وفى سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م كذلك ورد- كما يذكر القلقشندى- إلى الأبواب الشريفة كتاب جانى بك بن أوزبك، وكتب إليه الجواب

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص٥٣٧، ٥٣٨؛ وانظر أيضاً: جمال فوزى، دولة مغول القبيلة الذهبية، ص٢٤٥- ٢٤٦.

(٢) الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥١٢؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٧.

(٣) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، ص٢١٤، ٢٣٤؛ الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥٤٨.

(٤) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر محمد، ص٢٣٤.

الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده[١].

كما حافظ جانى بك على سياسة أسلافه فى ضرورة إخضاع الروس لدولة الإسلام، فجاء أمير روسيا ومطرانها إلى سراى "لتجديد العهد والمواثيق وإظهار العبودية على ما جرت به العادة[٢].

وكان جانى بك من أعظم حكام القبيلة الذهبية، وأكثرهم ورعاً وعدلاً وعلماً، ولكن خلفاءه لم يكونوا على نفس المستوى، لذلك اضطربت أمور الدولة وكثرت الفتن، وحاول ولاة الأقاليم الاستقلال، وراح كل منهم يحارب الآخر، وغرقت البلاد فى بحر من الفوضى استمرت ما يقرب من عشرين عاماً، استغلها الروس، ونجحوا فى هزيمة جيوش أمراء المغول المسلمين "القبيلة الذهبية" مرتين إحداهما فى عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، و الثانية فى عام ٧٨٢هـ/١٣٨٠م فى موقعة عرفت باسم كيلاكوفو Kulikovo على نهر الدون، التى تعد بداية النهاية لمغول القبيلة الذهبية[٣]. إذ لم يتعرض المغول لمثل هذه الهزيمة من قبل منذ أن نجح باطو بن جوجى بن جنكيز خان فى إخضاع الروس عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م وفرض عليهم الجزية.

لكن سرعان ما تولى عرش القبيلة الذهبية تقتمش بن بردى بن جانى بك (٧٨٢- ٧٩٨هـ/ ١٣٨٠- ١٣٩٥م) الذى تمكن من إنقاذ البلاد مما تعانيه من ضعف، وقاد الجيش إلى روسيا، وأفلح فى دخول موسكو عام ٧٨٣هـ/ ١٣٨٢م وخربها وقتل آلاف من سكانها، ونهب كنائسها وأحرقها، انتقاماً من الروس وما

---

(١) صبح الأعشى، ج٧، ص٢٩٥- ٢٩٦.

(٢) الرمزى، تلفيق الأخبار، ص٥٥٠؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٨.

(٣) انظر: أحمد محمود حسن عامر، " إمارة قازان والروس، ٨٤٢هـ- ٩٥٩م/١٤٣٨- ١٥٥٢م"، بحث منشور فى مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا يوليو ٢٠٠٢، ص٢٧٥- ٢٧٦.

فطوه بمسلمى المغول، لذلك اسرع حكام الروس بتقديم فروض الطاعة والولاء ودفع الجزية ثانية لدولة مغول القبيلة الذهبية وحكامها المسلمين[١].

هجوم تيمورلنك على دولة مغول القبجاق :

لم تكد تمضى خمس عشرة سنة على تولى تقتمش العرش، حتى دارت الحرب سجالاً بينه وبين تيمور لنك[٢] وانتهت بهزيمة تقتمش أو توقتاميش كما يسميه ابن عرب شاه- مؤرخ تيمور لنك- الذى يذكر " فرجع جيش توقتاميش منهزمين، وولوا على أعقابهم مدبرين، فوضع عسكر تيمور فيهم السيوف، وسقوهم ...كاسات الحقوف، و غنموا الأموال والمواشى، وأسروا أوساط الرعوس والحواشى.."[٣]. وضرب تيمور لنك العاصمة سراى، وقتل آلاف السكان فيها وفى غيرها من مدن مغول القبيلة الذهبية ومنها مدينة حاجى طرخان، وأزاق، والقرم وغيرها. وقوى شأن الروس منذ ذلك الحين، وأصبحت آمالهم فى الاستقلال قريبة المنال، خاصة بعد تلك الضربة القاضية، التى سددها تيمور لنك لدولة مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) والتى لم تفق منها البلاد، وتفككت أوصالها وانقسمت إلى خانيات صغيرة نتيجة للنزاع حول العرش وذلك منذ عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، من أشهرها. خانية القرم (٨٢٣- ١١٩٧هـ/ ١٤٢٠- ١٧٨٣م)؛ وقازان (٨٤١- ٩٥٩هـ/ ١٤٣٧- ١٥٥٢م) واستراخان (٨٧٠- ٩٦١هـ/ ١٤٦٥- ١٥٥٤م) وسيبريا (٨٣٠- ٩٨٩هـ/ ١٤٢٧- ١٥٨١م) وغيرها[٤].

---

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ج١، ص٥٧١-٥٨٠؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٨-١٢٩.
(٢) عن تيمور لنك انظر: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٥٤- ٢٥٦.
(٣) ابن عرب شاه، عجائب المقدور فى نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى، بيروت، ١٩٨٦، ص٥٩؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٢، ص٢٥٨- ٢٥٩.
(٤) رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٢٩- ١٣٠.

وأخذت هذه الدويلات الصغيرة أو الخانيات على عاتقها - رغم الانقسام عبء المحافظة على الإسلام، والدعوة إليه ما أمكن، كما تحملت عبء الجهاد ضد الروس، الذين استغلوا هذا الانقسام، وحاولوا السيطرة على تلك الدويلات من ناحية، والقضاء على الإسلام فيها من ناحية أخرى. ومن أهم هذه الخانيات التى عاشت فى حوض نهر الفولجا- موضوع الدراسة- خانية قازان (كازان) التى تعد امتداداً للمملكة البلغارية القديمة، التى نشط فيها الإسلام نشاطاً ملحوظاً، لذلك حملت خانية قازان لواء الإسلام بعد أن ضعفت دولة مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) فبعد أن تمكن الروس من تدمير مدينة بلغار الإسلامية عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م حلت قازان محلها فى رفع راية الإسلام لتظل عالية خفاقة فى تلك الأصقاع الشمالية النائية، واستطاع سلطانها ويدعى "محمد خان" أن يجمع حوله أعداداً هائلة من البلغار والمغول وغيرهم من مدن سراى وحاجى طرخان والقرم وأزاق، واستقل عن سراى منذ عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، وعظمت قوته حتى هاجم موسكو عدة مرات، وأسر حكامها فاسيلى الثانى Vasily II عام ٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م، وعدد من الأمراء والقادة الروس، ومعهم بطريرك موسكو ذاته. وعادت موسكو الروسية المسيحية تابعة ثانية لخانية قازان الإسلامية[1].

أصبحت خانية قازان أقوى خانيات المغول فى حوض نهر الفولجا إذ

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: الرمزى، تلفيق الأخبار، ج٢، ص٥١- ٥٧، ص١٣٦- ١٤٩؛ باسيليوس خرباوى، تاريخ روسيا، ص١١٦؛ أحمد محمود حسن، إمارة قازان والروس، ص٢٨٠- ٢٨٥؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ، ص١٣٣- ١٣٤؛ على حسون، العثمانيون والروس، بيروت - دمشق، ١٩٨٢ ص٣٣؛ جمال فوزى،المسلمون فى القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، القاهرة بدون تاريخ، ص٢٨.

أخضعت شعوب المنطقة، وخضعت لها كل من موردوف، وماري، وباشكيريا وغيرها، ودخل على يد حكامها حشد كبير من الناس فى الإسلام، إذ سعت هذه الخانية لنشر الإسلام بين الجماعات الوثنية فى المناطق المجاورة لها، ومنها جماعة (الجوفاش) التى قطنت الجنوب الغربى من خانية قازان، وجماعة (جرمش) فى الشمال الغربى منها، وجماعة (آر) ومساكنهم شمال قازان كذلك. وحققت خانية قازان نجاحاً باهراً إذ بدأت هذه الجماعات تدخل فى الإسلام بالفعل، خاصة جماعة الجوفاش، وأخذ تيار الإسلام يسير فى طريقه المرسوم، ويكتسح مظاهر الوثنية بين هذه الجماعات[1].

استيلاء الروس على الخانيات الإسلامية في حوض الفولجا :

ظلت موسكو تابعة لإمارة المسلمين فى قازان حتى تولى قيصرية روسيا إيفان الثالث فى عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م الذى قاد حملة قاتل بها المسلمون وأخرجهم من موسكو، وبذلك تحولت موسكو من التبعية لإمارة المسلمين فى قازان على نهر الفولجا إلى العدوان على تلك الإمارة أو الخانية نفسها، وقد فتح هذا العدوان الروسى الطريق لهدم السور الإسلامى ببلاد الفولجا، الذى كان يقف سداً منيعاً يحمى بلاد القوقاز من خطر الشمال (الروس). خاصة أن الخلافات بين حكام قازان بدأت تنشب أظافرها بينهم، بل بينهم وبين حكام الخانيات المغولية

---

(١) الرمزي، تلفيق الأخبار، ج٢، ص١٨٧– ١٨٨، باسيليوس خرباوى، تاريخ روسيا، ص١٢٥؛ رجب عبدالحليم، انتشار الإسلام، ص١٣٤– ١٣٥؛ على حسون، العثمانيون والروس، ص٥٨.

الأخرى مما أدى إلى ضعفهم جميعاً[١]، واستغل حكام روسيا الفرصة للقضاء عليهم، خاصة فى عهد القيصر الروسى إيفان الرابع Ivan IV (٩٣٩- ٩٩٣هـ/ ١٥٣٢- ١٥٨٥م)[٢].

اهتم إيفان الرابع اهتماماً كبيراً بإعداد الجيش الروسى وتسليحه وتقويته، واستعد بعد ذلك لغزو قازان، ومن أجل ذلك قام فى عام ٩٥٨هـ/ ١٥٥١م بتشييد مدينة على الشاطئ الآخر لنهر الفولجا، مواجهة تماماً لمدينة قازان، لتكون قاعدة ينطلق منها غداة مهاجمته لقازان. وبعد أن أتم القيصر إيفان الرابع استعداداته انطلق على رأس جيشه فى شوال من عام ٩٥٩هـ/ أكتوبر ١٥٥٢م متجهاً نحو قازان، وحاصرها بالمدفعية، ولم تستطع الصمود طويلاً فما لبثت أن سقطت فى يده فى العام التالى ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م، وأسرع إيفان بتعيين حاكم روسى على المدينة، ولم يسمح لحاكم مسلم بتولى أمور الحكم فيها بعد أن ضمها لدولته. ولم يكتف بسلب أموال أهلها من المسلمين، بل فرض عليهم الضرائب، وضرب القرى والمساجد بها، وأمر بألا يسكن المسلمون بالقرب منها أبداً. وتخليداً لذكرى هذا الانتصار شيد الروس فى موسكو كنيسة تحمل ذكرى النصر على قازان[٣].

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر: أحمد محمود، إمارة قازان والروس، ص٢٨٨- ٢٩٧؛ جمال فوزى محمد، المسلمون، ص٣٩.

(٢) عن إيفان الرابع أو الرهيب انظر: على حسون، العثمانيون والروس، ص٣٣، هامش ١؛ جمال فوزى، المسلمون فى القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، ص٣٩.

(٣) أحمد محمود، إمارة قازان، ص٢٩٩- ٣٠١؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، المسلمون في الإمبراطورية الروسية، بيروت، ١٩٩٤م، ص١٨٣؛ مصطفى كسبه، المسلمون فى أوربا، القاهرة، ١٤١٧هـ، ص٦٣؛ أنس خالدوف، الإسلام على نهر اتل أو الفولجا، ص٨.

اتبع القيصر إيفان قازان ببقية الإمارات الإسلامية الواقعة علـى حـوض الفولجا، فاستولى على استراخان (الحاج طرخان) فى عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٣م) ، ثم دخل أوفا عاصمة الباشكير فى عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م، وتوج انتصاراته بالسيطرة على بلاد الأدمورت عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م – وبذلك تمكـن إيفـان الرابـع مـن السيطرة على سائر الخانيات أو الإمارات الإسلامية الواقعة على حوض الفولجا، وضمها إلى حوزة روسيا، وأشرف بذلك إشرافاً كاملاً على مجرى النهر[١].

---

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة فى آسـيا واسـتراليا، ص٣٨٣- ٣٨٤؛ مصـطفى كسبه، المسلمون فى أوربا، ص٦٣؛ على حسون، العثمانيون والروس، ص٥١، ٥٨.

الفصل الرابع

الإسلام ومسلمو الفولجا في ظل السيطرة الروسية

- الإسلام والمسلمون في ظل سيطرة روسيا القيصرية.
- الإسلام ومسلمو الفولجا في ظل السيطرة الشيوعية.
- المسلمون في الجمهوريات الإسلامية في حوض الفولجا (روسيا الاتحادية):

أولاً : المسلمون في الجمهوريات الثلاث الأشقاء (باشكيريا ـ تتاريا ـ الجوفاش).

ثانيًا : المسلمون في الجمهوريات الإسلامية ذات الأصل الفيني (موردوف ـ أودمورت ـ ماري ـ أورنبرج)

الإسلام ومسلمو الفولجا في ظل السيطرة الروسية

الإسلام والمسلمون فى ظل سيطرة روسيا القيصرية :

انتهج الروس وعلى رأسهم القيصر إيفان الرابع (٩٣٩- ٩٩٣هـ/١٥٣٢-١٥٨٥م) سياسة تتصف بالعنف والشدة تجاه المسلمين والإسلام فى منطقة حوض نهر الفولجا، فما كاد إيفان يستولى على المنطقة حتى أمر بهدم المساجد، وإغلاق مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وإحراق المطابع التى تطبع القرآن الكريم والكتب الدينية، بل وأعدم ما يقرب من ألف شخص من رجال الدين وعلمائه، واتخذ الروس لوحات مقابر المسلمين التى نقشت عليها الآيات القرآنية لتكون أساساً لبناء الكنائس ورصف الطرق؛ وفرض إيفان قيوداً صارمة على الإسلام والمسلمين، فخير المسلمين بين ترك دينهم أو مغادرة أوطانهم(١).

وقد اضطر كثير من مسلمى الفولجا إلى الهجرة فراراً بدينهم، فتركوا أوطانهم مكرهين، بسبب قسوة الحكم الغاشم، وشكل هؤلاء جاليات من التجار ترتبط بشدة بالمراكز الثقافية فى الفولجا. واستطاعوا القيام بمحاولة لنشر الإسلام فى المناطق التى هاجروا إليها، واستقروا فيها، أو ارتدوها بتجاراتهم، وما أن علم الروس بذلك حتى زاد حقدهم وغضبهم على المسلمين، لذلك اضطروا إلى إعادتهم إلى موطنهم مرة أخرى، وحاولوا عزلهم، ومع ذلك كثيراً ما كان مسلمو الفولجا يرسلون أبنائهم إلى مدينة بخارى لتلقى علوم الإسلام هناك(٢). وبدلاً من

---

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٤؛ مصطفى كسبه، المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، ص١٣١؛ جمال فوزى محمد، المسلمون فى القوقاز والبلقان، ص٣٩؛ إبرار كريم، من هم التتار، ص١٠؛ أحمد محمود، إمارة قازان، ص٣٠٠.

(٢) هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة والصراعات العرقية فى كومنولث الدول المستقلة، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠، ص٢٧؛ محمود متولى، " المسلمون والحكم الشيوعى السوفيتى" بحث منشور فى أعمال مؤتمر المسلمون فى آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٨م، ص٣٣٥.

أن يضع الروس حداً لانتشار الإسلام – فى عهد إيفان– إذ به ينتشر على نطاق واسع "يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون". صدق الله العظيم.

لجأ إيفان الرابع كذلك إلى فرض سياسة التنصير الإجبارى على مسلمى المنطقة، مستخدماً أسلوب العنف والشدة، مما أجبر كثير من سكان الفولجا من الباشكير والتتار والجوفاش وغيرهم إلى اعتناق النصرانية مكرهين، خوفاً على أرواحهم وأرواح أولادهم وزوجاتهم وآبائهم، ولكنهم ظلوا مع ذلك محافظين على إسلامهم سراً، إذ يذكر أرنولد: "إن استمالة موطنى حوض الفولجا، وخاصة قازان إلى المسيحية كان أمراً صعب المنال؛ لذلك تظاهروا مثل غيرهم من شعوب المنطقة باعتناق المسيحية"(١). ولم يستسلم شعب الفولجا أمام قسوة الروس، واستمر فى تعليم أبنائه أسس الديانة الإسلامية، رغم ما لحق به من قتل وتشريد، وإجبار على التنصير على يد إيفان الرابع، الذى أطلق عليه مسلمو الفولجا "إيفان الرهيب" لشدة ما لحق بهم من أذى على يديه.

سار خلفاء إيفان الرابع على نهجه، وفرضوا التنصير الإجبارى على المسلمين فى حوض الفولجا بالقوة حيناً، وبإرسال البعثات التبشيرية حيناً آخر لجذب الجماعات المسلمة فى المنطقة إلى المسيحية، عن طريق منحهم بعض الامتيازات ومنها: الإعفاء من الضرائب لمدة عشر سنوات ومن الخدمة العسكرية؛ إعطاء الفقراء منهم الكثير من الأموال، ومعاملتهم معاملة حسنة ليحذوا بقية المسلمين حذوهم. وكانت الحكومة الروسية تنتهز فرصة تنصير ثلاث أو أربع أسر من أى قرية مسلمة، فتأمر باقى أهل القرية كلهم بالتنصير، أو

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٩.

الهجرة إلى مكان آخر، لذلك خلت كثير من القرى من سكانها المسلمين، أو تحولت الكثير منها إلى المسيحية تحت ضغط الحكومة الروسية، التى لم تكف عن الضغط على المسلمين، وإثقال كاهلهم بالضرائب، وإجبارهم على أداء الخدمة العسكرية، والعمل فى أخس الوظائف وأحقرها، مع الحيلولة بينهم وبين ممارسة شعائرهم الدينية، بإغلاق مدارسهم، وهدم مآذن مساجدهم، بحجة أنها أصبحت قديمة أو آيلة للسقوط، ويخشى على الناس منها؛ وإذا امتنع المسلمون عن الهدم، قام رجال الحكومة الروسية بهدمها، ففى عام ١١٦٩هـ/ ١٧٥٦م تم تدمير ٤١٨ مسجداً من مجموع المساجد التى كانت قائمة فى قازان وحدها، والبالغ عددها ٥٣٦ مسجداً، كما تم تخريب ٢٩ مسجدًا في استراخان، وانتشر الرهبان يبشرون بالمسيحية في أراضي المسلمين وفتحت مدارس خاصة لأولاد المسلمين، تديرها البعثات التبشيرية بدلاً من المساجد(١).

وراحت الحكومة الروسية تخطف من المسلمين أبنائهم، وتدخلهم المدارس التبشيرية حتى ينشأوا على المسيحية، واتبعت معهم أسلوب التصفية الجسدية، إذ أصبح الإسلام جريمة، يعاقب فاعلها بالإعدام، وقد دفع ذلك المسلمين إلى القيام بالثورات ومن أهمها ثورة الباشكير فى عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، ولكنها فشلت، وقمعت بوحشية وقسوة بالغة، وهجر المسلمون على أثرها ديارهم، وحل محلهم الروس، إذ تدفق على الدويلات الإسلامية فى حوض الفولجا، وخاصة بلاد الباشكير

---

(١) الرمزى، تلفيق الأخبار، ص١٨٨- ١٩٢؛ نادر دولت، الوضع الراهن للمسلمين السوفيت كما يمثلهم التتار فى إقليم كازان "بحث منشور فى أعمال المؤتمر الدولى العالمى السادس، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٤٢؛ مصطفى كسبه، المسلمون فــى آسـيا الوسـطى والقوقــاز، ص١٣١-١٣٢؛ محمود أبوالعلا، المسلمون فــى الاتحــاد الســوفيتى ســابقًا، القــاهرة، ١٩٩٣م، ص١٦، ١٧؛ جمال فوزى، المسلمون، ص٤١.

سيل من الفلاحين الروس المتعطشين لامتلاك الأراضى، التى خلت من سكانها الأصليين، وطوقوا المسلمين بالمنطقة تطويقاً محكماً، كذلك قام الروس بمصادرة مساحات واسعة من الأراضى الزراعية، التى كانت فى أيدى المسلمين مما نتج عنه أن عاش هؤلاء المسلمون فى حالة من الفقر المدقع، وعانوا من سوء الحالة المعيشية، وتعرضوا للدمار الاقتصادى[١].

عاش المسلمون فى بلادهم أرقاء، عوملوا معاملة سيئة، لا يتمتعون بحقوق المواطن الروسى، ولا حتى بأبسط حقوقهم، وذلك كنوع من الضغط عليهم للتخلى عن دينهم، وطمس هويتهم، حتى يصبحوا مسخاً روسياً تسيره السلطات الروسية لخدمة أغراضها[٢].

ظلت سياسة القهر والظلم الروسى تجاه المسلمين فى حوض الفولجا، حتى عهد الإمبراطورة كاترين الثانية (١١٧٦-١٢١١هـ/١٧٦٢-١٧٩٦م) التى اتبعت تجاه المسلمين سياسة تختلف عن سياسة أسلافها، فكانت تحترم الإسلام، وترى فيه من الإمكانات ما يجعل المنطقة أكثر تمديناً، لذلك أحبت رعاياها من المسلمين فسمحت للتتار المسلمين بالعودة إلى قازان بعد أن شردوا فى عهد إيفان الرابع ومن تبعه من خلفائه، وذلك فى عام ١١٨١هـ/ ١٧٦٧م، كما منحتهم الحرية المطلقة عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، وأعطتهم الحق فى بناء مساجدهم ومدارسهم لأول مرة فى تاريخ روسيا القيصرية، إذ لم يكن مسموحاً للتتار فى الفولجا ببناء المدارس من قبل[٣].

---

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا، ص٣٨٤؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٦، ١٧؛ محمود متولى، المسلمون، ص٣٣٤.

(٢) محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٣٠.

(٣) مصطفى كسبه، المسلمون فى آسيا، ج١، ص١٣٢.

تم فى عهد كاترين الثانية كذلك إنشاء الإدارة الدينية فى مدينة أوفا عاصمة الباشكير فى عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م، وكانت مهمتها الرئيسة اختيار رجال الدين المسلمين، وتعيينهم فى مناصبهم، هذا وإن كان من بين أنشطة هذه الإدارة أن تكون أداة رقابة لحساب الدولة الروسية[١]. وتجدر الإشارة إلى أن عهد كاترين الثانية لم يكن كله عهد تسامح مطلق، فقد بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية كثيرًا من ضروب الإقناع والإغراء فى ذات الوقت لتعميد المسلمين، ففى عام ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م أمرت الإمبراطورة بأن يوقع كل من هو حديث العهد بالمسيحية على إقرار كتابى يتعهد فيه بترك خطاياه، ويتجنب الاتصال بالكفار ويتمسك بالدين المسيحى وعقائده. حقيقة أن هناك جماعة من التتار المسلمين عمدوا، ولكنهم لم يكونوا مسيحيين إلا اسماً، وما لبثوا أن تركوا المسيحية، لأنهم ظلوا مسلمين بقلوبهم، وقاوموا كل ما اتخذ من تدابير تهدف إلى جعل اعتناقهم المسيحية حقيقة واقعة[٢].

وبذلت الكنيسة الأرثوذكسية- في عهد كاترين- كذلك جهوداً كبيرة لتنصير المسلمين من الباشكير وغيرهم من مسلمى الفولجا وإبعادهم عن الدين الإسلامى، ولكن لم تأت هذه الجهود بالنتائج المرجوة منها، ولم تحقق النجاح المطلوب، يتضح ذلك من خلال تعداد السكان الذى أجرى عام ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م، الذى جاء فيه أن عدد سكان قازان- على سبيل المثال- رجالاً ونساءً بلغ ١١١,٣٤٠ وبلغ من تم تنصيرهم منهم ١٧,٣٠٦ وهى نسبة لا تتجاوز ١٠%[٣]. مما يظهر مدى سيادة الإسلام فى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى فى منطقة حوض نهر الفولجا خلال تلك الفترة.

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٢.

(٢) أرنولد، الدعوة، ص٢٧٨- ٢٧٩.

(٣) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٢.

شهد الإسلام مع مطلع القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى صحوة كبرى فى حوض الفولجا، فقد أصبحت الكتابة باللغة العربية أمراً ميسوراً، وتشجع المسلمون على كتابة المؤلفات الدينية وتوزيعها على السكان، وتم طبع ما يقرب من ٥٧٧ كتاباً فى إقليم قازان وحدها خلال الفترة من (١٨٠١-١٨٥٥م)، وهو عدد كبير له وزنه بالفعل، خاصة أنه لم يصدر فى روسيا خلال تلك الفترة سوى ١٤٦٣ كتاباً فقط، كذلك تم طبع ٢٣,٦٠٠ نسخة من القرآن الكريم خلال الفترة (١٢٥٨-١٢٦٩هـ/١٨٤٢-١٨٥٢م)، و٤٤,٣٠٠ نسخة من الجزء السابع منه، وبلغ عدد النسخ المطبوعة من المصحف الشريف خلال الفترة (١٢٧٠- ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٣- ١٨٥٩م) ما يقرب من ٨٢,٣٠٠ ومن الجزء السابع ١٦٥,٠٠٠ نسخة[1].

وارتفع كذلك عدد المساجد فى الإمارات الإسلامية فى حوض الفولجا، ففى قازان وحدها، بلغ عدد المساجد ٧٢٩ مسجداً، وأخذ هذا العدد يتزايد سنة بعد أخرى، ونشط أئمة المساجد والفقهاء نشاطاً ملحوظاً، أسفر عن نتائج طيبة، ففى عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، أعلن عدد من المسيحيين التتار ارتدادهم عن المسيحية والكنيسة الأرثوذكسية[2].

لم تيأس الحكومة الروسية، وراحت تبذل جهوداً جديدة فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى لتنصير عدد من الجماعات المسلمة فى حوض الفولجا، وذلك عن طريق إنشاء المدارس، واستخدام أساليب مرنة، وأكثر فاعلية، لاجتذاب المسلمين إلى المسيحية بالثقافة والدعاية، فقام المبشر الأرثوذكسى "تيقولا المنسكى فى عام ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م بوضع سياسة

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٣.

(٢) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٣.

تعليمية جديدة، حيث أنشأ داراً للمعلمين خاصة بالتتار المتنصرين، تهدف إلى تكوين نخبة مثقفة بالثقافة الأوربية، ليقوموا بأعمال التنصير مع إخوانهم الذين ظلوا مسلمين، غير أن المسلمين صمدوا، وقاوموا هذه السياسة بكل ما أوتوا من قوة، وراحوا يدفعون بالدعوة الإسلامية إلى الأمام إذ يذكر أرنولد على لسان أستاذ روسى "كنا نستجلب نفراً قليلاً من سكان القرى الواقعة فى السهل، ونروضهم على مخافة الله، فإذا أصبحوا معنا، فإنهم لن يعرضوا عنا أبداً"[١]. وذلك على الرغم من أن القانون الجنائى الروسى، كان يتضمن عقوبات صارمة لكل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحى إلى الإسلام وهى: تجريده أولاً من كافة الحقوق المدنية، وثانياً الحبس مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثمانى عشرة سنة أو يحكم عليه بالنفى[٢].

وتتصدر مدينة (قازان أو كازان) أهم مراكز الدعوة إلى الإسلام فى تلك الفترة، بل هى المركز الرئيس لنشاط الدعوة فى حوض الفولجا، فقد اجتهد علماؤها فى الدعاية للإسلام، وطبعوا المنشورات الإسلامية بأعداد كبيرة، واهتموا باستخدام اللغة التتارية فى التعريف بالإسلام، كذلك انتشر طلاب جامعة قازان فى القرى والفيافى يدعون الناس للإسلام، مما أدى إلى زيادة عدد التتار الذين دخلوا فى الإسلام، وأفزع فى الوقت نفسه الكنيسة الروسية الأرثوذكسية[٣].

ما لبثت الدعوة الإسلامية فى الفولجا أن سارت قدماً فى حماسة بالغة، حتى أصبح كل مسلم ساذج أمى – كما يذكر أرنولد– داعية إلى دينه، لذلك عجزت القبائل الفقيرة الأمية من الوثنيين عن أن تقاوم هؤلاء الدعاة الذين يشاركونهم

---

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٧٩.

(٢) أرنولد، الدعوة، ص٢٧٩– ٢٨٠.

(٣) أرنولد، الدعوة، ص٢٨٠؛ وانظر أيضاً: سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٧٨.

لغة الحديث، ويشتركون معهم فى العادات والتقاليد وأساليب الحياة، وفى كثير من القرى التى تم تنصير أهلها طوعاً أو كرهاً، كان رجالها ينطلقون فى فصل الشتاء، لاحتراف حرفة الحياكة وغيرها فى القرى الإسلامية، وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم دعاة يبشرون بدينهم الجديد[1].

وسرعان ما دخل قاطنى حوض الفولجا أفواجاً فى الدين الإسلامى مع بواكير القرن الرابع عشر الهجرى/ العشرين الميلادى، خاصة بعد صدور مرسوم الحرية الدينية فى عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، الذى منح شعوب حوض الفولجا الحرية فى ممارسة شعائر الديانة الإسلامية، مما دفع أعداد كبيرة من المسيحيين إلى الارتداد عن المسيحية، ففى أبروشية قازان وحدها، بلغ عدد المرتدين عن المسيحية، الذين دخلوا فى الإسلام ٢٣,٨٦٠؛ كذلك عاد الجوفاش إلى الإسلام مرة أخرى، وظهورا كمسلمين حقيقيين، مما يبين مكانة الإسلام فى نفوسهم، وأنهم ما ارتدوا عنه إلا تحت القهر والضغط الروسى[2].

ونشط الباشكير فى الدعوة العلانية للإسلام، ونجحت دعوتهم نجاحاً باهراً، وذلك بفضل مستوى الحياة الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى، الذى كان أكثر رقياً، فضلاً عن شعور التآخى، الذى يشيع فى هذا المجتمع، الذى كان أكثر تماسكاً وقوة، أضف إلى ذلك الأساليب التى لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدتها الحكومة، لجعل التتار المسيحيين فى الفولجا أكثر تمسكاً بالدين، هذه الأساليب جعلت العقيدة المسيحية أمراً غير مألوف لديهم، وأفسحت الطريق أمام الإسلام

---

(١) أرنولد، الدعوة، ص٢٨١.

(٢) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٤؛ مصطفى كسبه، المسلمون فى آسيا، ص١٣١. وانظر ما يلى.

ليزداد انتشاراً. فقد دخلت بعض القبائل المسيحية فى الإسلام، ومنها قبيلة الشيريميس Cheremiss، فرغم أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسماً، إلا أن قراهم أسلمت بأسرها، وانتقل سكانها إلى قرى التتار المسلمين وتصاهروا معهم، وتأثروا بعاداتهم وتقاليدهم، بل وانتشرت لغة التتار بينهم، علاوة على ذلك أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد(١).

تكاثر عدد المسلمين فى دويلات حوض الفولجا تدريجياً بعد منحهم الحرية الدينية، فأصبح فى قازان -على سبيل المثال- فى عام ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م طبقاً للبيانات الرسمية – ستة آلاف محلة، تضم خمسة ملايين مسلم، كما أن عدد المساجد بها بلغ ١٨٩٠ مسجداً فى عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، ثم تزايد ليصل إلى ٢,٢٢٣ مسجداً فى عام ١٣٣٥هـ/ ١٩١٧م، كما بلغ عدد الأئمة فى تتارستان ٣,٦٨٣ إماماً(٢). وسرعان ما تزايد عدد المساجد فى المنطقة ليصل إلى أكثر من ثلاثة عشر ألف مسجد، بالإضافة إلى المراكز العلمية والدينية الأخرى. وقام المسلمون فى الفولجا بطبع الكتب الدينية، واحتل القرآن الكريم مكانة خاصة فى طبع ونشر هذه الكتب، وكان دور النشر تقوم بإصدار مؤلفات علماء الشرق المسلمين مثل الغزالى والكندى وآخرين، وظلت الحروف العربية تستخدم حتى قيام الثورة البلشفية ١٩١٧م، كما كانت المكتبة التتارية فى الفولجا تحتوى على قدر كبير من المؤلفات فى العلوم الإسلامية باللغة العربية(٣).

شهدت البلدان الإسلامية الخاضعة لروسيا القيصرية فى حوض الفولجا

---

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٠– ٢٨٢. وانظر ما يلى، ص.

(٢) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٣– ٤٤٤.

(٣) إبرار كريم الله، من هم التتار، ص١٠–١١.

حركة إصلاحية، حيث ظهر كثير من الزعماء الذين نادوا بتغيير نمط الحياة التقليدية للمسلمين، وإيجاد نهضة ثقافية بينهم فى تلك المناطق، وأطلق عليهم اسم " التجديديون " وقد تأسست حركة التجديد والإصلاح هذه فى عام ١٣٣٢هـ/١٩١٤م، وقد قوبلت بحماس شديد فى منطقة الفولجا- أورال، إذ كانت تهدف إلى تحقيق الوحدة بين الشعوب التركية فى روسيا، وحدة اللغة، ووحدة المبادئ، ووحدة العادات، كما كانت تسعى إلى إصلاح المدارس الدينية حتى تدرس بها العلوم الدنيوية إلى جانب العلوم الدينية، وبهذه الحركة أمكن لمسلمى الفولجا استخدام القوة فى وجه الروس[١].

هكذا تمتع المسلمون فى حوض الفولجا بالحرية الدينية فى ممارسة شعائرهم، وبنوا المساجد والمدارس، وأخذوا فى نشر دعوتهم على أوسع نطاق، فى ظل السيادة القيصرية لروسيا، بل وقاوموا بحركات الإصلاح والتجديد التى مكنتهم من مواجهة الروس.

الإسلام ومسلمو الفولجا فى ظل السيطرة الشيوعية الروسية :

قام البلاشفة Bolsheviks (أى الأكثرية) بثورة فى روسيا فى عام ١٣٣٦هـ/ نوفمبر ١٩١٧م، وتطلع قادة هذه الثورة الشيوعية وعلى رأسهم لينين وهم يخوضون القتال ضد خصومهم إلى الحصول على تأييد المسلمين حول حوض نهر الفولجا ووسط آسيا، فقد نظروا إلى الإسلام فى المنطقة على أنه حركة وليس مجرد دين فحسب، حركة لها قوتها وفاعليتها السياسية، نظراً لأنها تمثل ملايين المسلمين، لذلك أصدر لينين -جرياً وراء مبدأ الغاية تبرر الوسيلة-

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٣.

بياناً موجهاً إلى العمال المسلمين فى ديسمبر من نفس العام، يبشرهم بوعود خلابة، قوامها تحرر المسلمين داخل روسيا من حكم القياصرة البغيض، ومنحهم حرية العقيدة الدينية، وممارسة شعائرهم ومعتقداتهم دون قيود[1]. وقد جاء فى هذا البيان :

" ... إن عالماً جديداً يولد الآن، عالم العمال والأحرار ... وفى خضم هذه الأحداث نلتفت إليكم يا مسلمى روسيا، يا تتار الفولجا والقرم ... أنتم يا من هدمت مساجدكم ... ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم، وحاربوا دينكم ... وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم... ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة ... إننا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم، وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها ... وأعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ... ولهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها، لأنها تقوم من أجلكم، ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية"[2].

وصدق المسلمون وعود لينين بالحرية والاستقلال، وناصروا ثورته، ولكن كان هذا النداء خداعاً للمسلمين ليدعموا الثورة الشيوعية، التى كانت تخشى على نفسها من الانهيار، وتحتاج إلى قوى شعبية تدعمها، فما كاد الجيش الأحمر يستولى على السلطة فى موسكو، ويتولى الشيوعيين مقاليد الأمور، حتى نقضت الحكومة السوفيتية وعودها، فقد كان للنظام الجديد هدف ثابت لم يطرأ عليه تغيير منذ قيام الثورة البلشفية وهو شن حرب شاملة ضد جميع الأديان، بما فيها

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٤؛ جمال فوزى، المسلمون، ص٥٠.

(٢) جمال فوزى، المسلمون، ص٥١، ٥٥؛ محمود متولى، المسلمون والحكم الشيوعى، ص٣٤٣- ٣٤٤.

الإسلام، وإن اختلفت السياسات التى استخدموها فى سبيل تحقيق هذا الهدف، لذلك ما أن انقضى العقد الأول من الحكم الشيوعى، الذى كان يسوده نوع من التعايش القائم على أساس هش، حتى واجه المسلمون حملة عدوانية ضارية، وهجوماً مباشراً على الإسلام، فأصبحت الدعوة الإسلامية محظورة حظراً تاماً مع أن الدعاية للإلحاد فرض على الجميع، وتمارس فى الاتحاد السوفيتى بطريقة منظمة وعلى أوسع نطاق، واشتدت الحملة المعادية للإسلام فى الصحافة لتشويه صورته، وإبراز طابعه المعادى لمصلحة المجتمع؛ فهو عقبة كبرى أمام المد السوفيتى. لذلك تعرض الزعماء الدينيين للاضطهاد، وأغلقت المدارس الإسلامية والمعاهد الدينية، وشرد من كان بها من المسلمين، بل لم يسمح بالتعليم الدينى، وفرضت ضرائب باهظة على المساجد، التى استمرت فى ممارسة نشاطها[1].

تابع الحكم الشيوعى السياسة العنصرية فى محاربة الإسلام، فاستولى على المناطق الإسلامية ، التى كانت خاضعة للحكم القيصرى، وعمل على تقسيم المنطقة إلى وحدات صغيرة أو إلى عدد من الدول والجمهوريات، تتمتع بالحكم الذاتى، وربطها بروسيا الاتحادية، بدلاً مما كان يهدف إليه المسلمون من إنشاء دولة واحدة تضم شعوب الفولجا، وتسود بينها لغة واحدة، وثقافة واحدة، ولكن الروس لم يجدوا فى ذلك مصلحتهم، لذلك سعوا إلى تقسيم هذه المنطقة إلى عدد من الجمهوريات المستقلة، المنفصلة عن بعضها،١ ولكل منها لغتها الخاصة، ولهجتها المحلية، مع محاولة إبعاد منطقة حوض الفولجا الأدنى حيث القواعد

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٣٨- ٤٤٤؛ محمود متولى، المسلمون، ص٣٤٤؛ محمود أبو العلا، المسلمون، ص١٣١؛ وانظر أيضاً: محمد السيد غلاب وآخرون، البلدان الإسلامية والأقليات فى العالم المعاصر، ص١٠، مصطفى كسبه، الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين، القاهرة ١٤٨٥هـ، ص١٦.

الإسلامية الأولى والمهمة ممثلة فى السراى (ساراتون الحالية) قاعدة دولة المغول القبجاق (الذهبية)، واستراخان الواقعة على مصب نهر الفولجا فى بحر الخزر (قزوين) خارج نطاق هذه الجمهوريات، والأكثر من ذلك استغل الروس قلة عدد سكانها من المسلمين، وأقطعوها لأبناء جلدتهم من الروس، وهذه المنطقة هى التى عرفت من قبل باسم "دشت القبجاق أو القفجاق"(١).

أما عن منطقة حوض الفولجا الأوسط فقد قام الاتحاد السوفيتى بتقسيمها إدارياً إلى عدة جمهوريات لأهداف سياسية ودينية أو عقائدية، فى مقدمتها أن يحصر الأقليات المسلمة، ويمنع اندماجها فى قومية مشابهة لها، لكى تذوب فى المجتمع، ويصبح من السهل عليه الضغط عليها لترويسها، ومحو هويتها تماماً لكى تذوب وتتلاشى فى المجتمع الروسى(٢). وعدد هذه الجمهوريات سبع جمهوريات هى على النحو التالى :

١- جمهورية باشكير (باشكوردستان).

٢- جمهورية تتارستان.

٣- جهورية الجوفاش (جوفاشيا).

٤- جمهورية موردوف.

٥- جمهورية مارى.

٦- جمهورية أودموريت.

٧- جمهورية أورنبرج (شكالوف).

ويطلق على الجمهوريات الثلاث الأولى " الجمهوريات الأشقاء "، وذلك

---

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٧٧- ١٧٨؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٣١.

(٢) هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص١١٢.

للارتباط العرقى والمكانى بين شعوب هذه الجمهوريات الثلاث وهم: الباشكير والتتار والشوفاش (الجوفاش) الذين أسسوا دولة لهم بين مجرى نهر كاما والفولجا فيما بين القرنين السابع والثامن الميلاديين، ومن ثم فإن تاريخهم مشترك، وحتى عند انقسام دولة المغول الذهبية، اشتركوا جميعاً فى خانية واحدة أو إمارة واحدة وهى خانية قازان[1]. أما الجمهوريات الأربع التالية فيمكن أن نطلق عليها الجمهوريات ذات الأصل الفينى Finns وهى: موردوف، وجمهورية أودمورت وجمهورية مارى وأورنبرج، وذلك لأن كلها ترجع إلى الأصل الفينى، وتتحدث لغة خاصة بها لا تمت إلى التركية بصلة، بل هى من اللغات الفينية الأوغورية، وقد دخلت الإسلام تحت تأثير الباشكير والتتار فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وقد حرص الروس على القضاء على وحدتهم، والعمل على إبعادهم عن بعضهم البعض، حتى لا يتحدوا، ويصبحوا قوة إسلامية كبرى فى المنطقة.

أولاً: المسلمون فى الجمهوريات الأشقاء الثلاث الأولى :

١- المسلمون فى جمهورية باشكيريا (باشكوردستان) :

كان الباشكير قبل الغزو الروسى لبلادهم فى عام ٩٦٣هـ/ ١٥٥٥م مقسمين بين إمارة قازان وإمارة سيبريا وعشيرة نوغاى الكبيرة، ولم يستطيعوا أبداً أن ينظموا أنفسهم ككتلة سياسية أقوى تركيباً من القبيلة. وتصدى الباشكير للروس وقاوموهم بضراوة خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين/ السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وقاموا بالثورات ضدهم ومن أعنفها تلك الثورة التى قام بها الباشكير فى عام ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، ورغم فشل هذه الثورة

(١) محمود أبوالعلا، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى سابقاً، ص١٣؛ مصطفى كسبه، الشيشان، ص١٣؛ محمود شاكر؛ التاريخ، الإسلامى، ج٢١، ص١٧٧- ١٧٨.

وقمع الروس لها بوحشية، إلا أن نضال الباشكير ضد الروس ظل مستمراً[١].

تمتع الباشكير فى عهد كاترين الثانية (١١٧٦-١٢١١هـ/١٧٦٢-١٧٩٦م) بقدر من الحرية، وأنشأت الإدارة الدينية لمسلمى الفولجا فى عاصمتهم مدينة أوفا فى عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م، ولكن ذلك لم يحد من محاولات الكنيسة الأرثوذكسية تنصير مسلمى الباشكير، وإن كانت محاولاتهم لم تأت فى النهاية بالنتائج المرجوة منها. فسرعان ما تزايد عدد المسلمين من الباشكير، خاصة بعد صدور مرسوم الحرية الدينية فى عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، ونشط الباشكير فى الدعوة العلانية للإسلام، ونجحت دعوتهم نجاحاً باهراً، إذ اعتنق الإسلام على أيديهم عدد من القبائل المجاورة لهم كما سبق أن ذكرنا. ولكن بعد أن قامت ثورة البلاشفة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، واستولى السوفيت الشيوعيون على مقاليد الأمور فى موسكو، ونجحوا كذلك فى الاستيلاء على المناطق الإسلامية التى كانت خاضعة للحكم القيصرى، عملوا على تقسيمها إلى وحدات صغيرة بهدف تفريق شمل المسلمين بالمنطقة، وجعلوا منها جمهوريات ذات استقلال ذاتى مع ربطها بروسيا الاتحادية[٢].

كانت باشكيريا أول جمهورية ذات استقلال ذاتى، تأسست فى ٢٣ جمادى الآخرة ١٣٣٧هـ/٢٣ مارس ١٩١٩م كجزء من الجمهوريات الاشتراكية الفيدرالية السوفيتية المتحدة.

تقع جمهورية باشكيريا فى الجزء الأوربى من جمهورية روسيا الاتحادية، حيث تمتد من جنوب الأورال إلى الغرب حتى نهرى بلايا (ايشمبادى) وكاما[٣].

(١) انظر ما سبق، ص١٤٥؛ وانظر أيضاً هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص١٤.

(٢) انظر ما سبق، ص١٤٥-١٤٧.

(٣) هويدا محمود فهمى، الأقليات المسلمة،ص ١١، وانظر الخريطة.

ويحدها من الغرب جمهورية تتارستان وجمهورية أدمورت وأورنبرج من الجنوب، وسيبريا من الشرق والشمال. أما عاصمتها فكانت فى البداية مدينة " ستريليتاماك" – الواقعة على نهر كاما أحد روافد نهر الفولجا، وإلى الجنوب من أوفا، وتحديداً على بعد ١٢٥ كيلو متر منها– ولكن ما لبثت أوفا أن عادت عاصمة من جديد لباشكيريا فى عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م، وأكبر مركز روحى ودينى للمسلمين فى حوض الفولجا الأوسط، بل ولجميع المسلمين فى روسيا الأوربية وسيبريا حتى تفكك الاتحاد السوفيتى وانهياره[١].

حاول الروس إبعاد باشكيريا عن لغة التتار فى قازان– تلك اللغة التى ربطت بلدان الفولجا، ووحدتهم لغوياً وثقافياً، وذلك بإيجاد لغة بشكيرية خاصة، تعتمد على لغة تتارية قديمة، حقيقة قاومها الباشكير، ولكن لبعض الوقت، وذلك لأن القرار السياسى والإدارى لا يتركز فى يد الباشكير، العنصر الوطنى للجمهورية، ولكن فى يد الدولة التى يتبعها هؤلاء الباشكير[٢]. وطبقاً لإحصاء عام ١٩٨٩م، كانت نسبة من يعرفون اللغة البشكيرية قد وصلت إلى ٧٤,٧% أما نسبة من يعرفون اللغة الأم وهى التتارية فقد بلغت ٢٥,٣% مما يدل على نجاح الروس فى تحقيق هدفهم[٣].

دخل المسلمون فى باشكيريا مرحلة جديدة من التحدى من جانب الحكومة السوفيتية، فهدم العديد من مساجدهم، وألغيت المدارس الإسلامية ولكن الباشكير

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨١؛ محمود أبوالعلا، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ص٣٧، ١٢٦، ١٢٧؛ سعيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة فى آسيا، ص٣٨١؛ هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص١٣– ١٤.

(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٧٨.

(٣) هويدا فهمى، الأقليات المسلمة، ص١٤.

لم يستكينوا لما فرض عليهم، وقاوموا التحدى، وأمام مواقفهم الصلبة، عدلت الحكومة السوفيتية من سياسة الاضطهاد التى كانت تتبعها ضد الإسلام، فعندما اقترح مفتى " أوفا " عاصمة باشكيريا وهو " عبدالرحمن ريزوليف " – وهو من القلائل الذين نجوا من حملة الاضطهاد الدينى، التى استمرت طوال الفترة من (١٩٣٢-١٩٣٨م) – اقترح على ستالين فى عام ١٩٤٢م تطبيع العلاقات بين الحكومة السوفيتية والإسلام، وقبلَ ستالين هذا الاقتراح، وأبرمت اتفاقية كان من نتيجتها وضع حد للدعايات المناهضة للدين. واستعاد الإسلام وضعه القانونى بعد ٣٤ عاماً، وظلت مدينة أوفا عاصمة باشكيريا مقراً للإدارة الدينية لمسلمى القسم الأوربى من الاتحاد السوفيتى السابق ومسلمى سيبريا كذلك[١].

لكن بعد عام ١٩٥٣م واصل خروشوف الحملات الإدارية والنفسية تحت شعار " العودة لتعاليم لينين " فقام بخفض عدد المساجد وعدد رجال الدين، ولم تعد الإدارة الدينية فى (أوفا) تمارس أى سلطة ولم يعد يطبع فى أوفا سوى تقويم باللغة العربية لا يستطيع قراءته إلا من جاوز الستين من العمر، كما لم يعد مصرح لها بأن تنشر مطبوعات أخرى، ولا أن تقوم بتعليم الأطفال تعليماً دينياً ، كما لم يسمح للعلماء فيها بمزاولة أى نشاط خارج المسجد، مثل الدعاية الاجتماعية أو صيانة المعاهد الدينية، أو إلقاء المحاضرات أو إصدار المطبوعات، وبذلك جرد السوفيت هذه الإدارة الدينية من كل السلطات، وبالتالى أصبحت أمراً شكلياً[٢].

استمرت الإجراءات والدعايات الإلحادية المناوئة للإسلام، التى اتخذتها

---

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٤؛ سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٤.

(٢) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٤–٤٤٥؛ سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٠.

الدولة- أكثر من سبعين عاماً ، مما جعل الالتزام بتعاليم الإسلام وانتشاره أمراً صعباً بل محالاً، لذلك انخفض عدد المسلمين ممن يمارسون شعائر دينهم. ولكن لا يعنى هذا أن الإسلام قد اختفى فى باشكيريا، فقد ظل الإسلام قوياً بين سكان الريف، وكبار السن، أقوى منه بين سكان المدن، فقد قرر ٧٣,٩% من المتقاعدين فى جمهورية باشكيريا ممن تم استجوابهم - كما يذكر نادر دولت - أنهم يتمسكون بتقاليد الإسلام[١].

وفى عام ١٩٦٥ كان ٤٠-٥٠% من الآباء يسمون أبنائهم بأسماء إسلامية، كما كان ٥٥- ٦٠% يعقدون قرانهم بمعرفة إمام المسجد، فى حين كان ٩٠% منهم يدفنون موتاهم حسب الشعائر الدينية[٢]. مما يظهر بجلاء أن الإسلام ظل بخير فى باشكيريا رغم التحديات التى واجهها.

وسرعان ما شهد الإسلام فى باشكيريا فى الآونة الأخيرة صحوة، نتيجة لإتباع الاتحاد السوفيتى سياسة حرية الأديان، التى نتج عنها ظهور حركة إسلامية نشطة فى جمهورية باشكيريا، ففى عام ١٩٩٠م وضعت عدة مشاريع منها :

أولاً : مشروع مجمع مدرسى على مساحة ١٢ هكتار- فى مدينة أوفا- عاصمة باشكيريا- لتعليم الدين الإسلامي.

ثانياً : بناء ٤٣ مسجداً فى القرى والمدن بالمنطقة.

ثالثاً : بناء مراكز إسلامية فى مدن أوفا وقازان وغيرهما[٣].

---

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٥.

(٢) نفسه، ص٤٤٦.

(٣) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٤، ٣٨٥.

وتزايد عدد المسلمين فى جمهورية باشكيريا ليصل حالياً إلى ٦٠% من مجموع سكانها البالغ (٤,٣٢٠,٠٠٠) نسمة[1]. هكذا انتصر الإسلام فى النهاية رغم التحديات الروسية.

٢- المسلمون فى جمهورية تتارستان (تتاريا) :

قامت جمهورية تتارستان فى ٢٨ شعبان سنة ١٣٣٨هـ/ ١٧ مايو ١٩٢٠م على إثر إلغاء السلطات الروسية لخانية قازان، وتقع جمهورية تتارستان فى الجزء الأوربى من جمهورية روسيا الاتحادية، عند المجرى الأوسط من نهر الفولجا، وفى المكان الذى يلتقى فيه نهر كاما مع نهر الفولجا. ويحدها من الشرق جمهورية باشكيريا ومن الغرب والشمال عدة جمهوريات إسلامية صغيرة ذات حكم ذاتى كذلك وهى : الجوفاش وأودمورت ومارى، ويحدها من الجنوب جبال الأورال وجمهورية قازخستان. وتعتبر هذه الجمهورية أقرب المجتمعات الإسلامية من موسكو من حيث الموقع[2].

أما عاصمة جمهورية تتارستان فهى "قازان أو كازان" التى تقع على الضفة اليسرى من نهر الفولجا.

يرجع أصل سكان جمهورية تتارستان إلى عدة جماعات عرقية مختلفة فى الأعراف والتقاليد ولكنها متحدة فى اللغة والدين، ومن أهم هذه الجماعات[3] :

---

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٠؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص٣٧، ١٢٦؛ سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات، ص٣٨١، ٣٨٢.

(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٣، محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٢٤؛ سيد عبدالمجيد، الأقليات، ص٣٧٥؛ هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص١٦.

(٣) عن هذه الجماعات انظر ما سبق، ص ؛ وانظر أيضاً، محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٤، هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص٢٨.

تتار استراخان: ويستوطنون وادى الفولجا الأدنى فى منطقة استراخان، وهم الذين أسسوا إمارة استراخان فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وقد اندمجوا الآن نهائياً فى تتار الفولجا، وعددهم ثمانية آلاف نسمة، ولغتهم لغة تتار قازان، وهم قرويون يعملون بالزراعة وصيد الأسماك.

تتار ليتوانيا (بولونيا) : وهم أحفاد نوغاى، وعددهم خمسة آلاف نسمة، ويدينون بالدين الإسلامى، وسكنوا ليتوانيا منذ عام ٨١٣هـ/ ١٤١٠م حينما دعاهم أميرها لمساعدته فى بعض الحروب، وبعد انتصاره دعاهم للاستيطان فيها.

تتار الفولجا الأصليون: وهم أحفاد تتار القبيلة الذهبية، الذين أسسوا إمارة قازان أو خانية قازان فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين كذلك. وهم ينقسمون إلى عدة أجناس مختلفة وهى :

أ- الكرياشن : وهم أحفاد مؤسس خانية قازان، وكانوا مسلمين، ثم ارتد بعضهم عن الإسلام، ثم عادوا إلى الإسلام بعد صدور مرسوم التسامح الدينى فى عام ١٩٠٥م، كما سبق أن ذكرنا.

ب- الميشار : وهم مسلمون، ويبلغ عددهم حوالى نصف مليون تقريباً، ويسكنون فى الإقليم الواقع بين وديان أوكا والفولجا.

ج- التيبتيار: وهم من تتار قازان، وفروا منها فى عام ٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م حينما هاجمت جيوش إيفان الرابع تتارستان أو تتاريا، وأقاموا فى باشكيريا، ويبلغ عددهم نصف مليون نسمة.

حاول الروس زعزعة إيمان المسلمين فى جمهورية تتارستان عن طريق

تهجير العديد من الروس إليها من روسيا الأوربية، بهدف التقليل من الأغلبية المسلمة فيها التى تصل حالياً إلى ٦٥% تقريباً، ولكن لم ينجح الروس فى ذلك، فرغم حملاتهم الدعائية الشرسة المناوئة للإسلام، فلا يزال الإسلام دين الأغلبية فى جمهورية تتارستان، فضلاً عن محاولات أهلها توحيد الشعوب الإسلامية فى روسيا بصفة عامة وفى حوض الفولجا بصفة خاصة، كما كانت الحال فى الماضى من أجل التصدى للروس، غير أن الروس رفضوا وحدة الأراضى والشعوب الإسلامية فى كيان واحد، واجتهدوا من أجل تفتيتها والقضاء عليها(١).

ولما كانت الإجراءات التى اتخذتها السلطات السوفيتية، لم تحقق النتائج المرجوة منها، فقد قرر الزعماء السوفيت- خلال السنوات الأخيرة- شن حملة دعائية لنشر الالحاد، ومقاومة الإسلام بصفة خاصة، على أساس فكرى، فصدر فى قازان وحدها أكثر من خمسة وعشرين كتاباً مخالفاً للإسلام فيما بين عامى ١٩٦٠-١٩٨١م، وحاول مؤلفو هذه الكتب تشويه الإسلام، والإساءة إليه وإلى المسلمين دون أن ينتقدهم أحد، كما حاولوا إشاعة عدم الاستقرار بين المسلمين، فهناك بعض الشعائر الدينية- مثل الطهارة- التى تأصلت كعادات قوية بين الناس، قالوا عنها أنها غير صحيحة، كما أثاروا الشكوك حول الصيام، وأرغم المفتى شاكر جان شيال الدين فى عام ١٩٦١م على إصدار فتوى، أعلن فيها أن العمال بما فيهم عمال المزارع التعاونية لا يجب عليهم الصوم، وإن كانت فتواه لم تلق قبولاً من الأئمة ولذلك توقف نشرها(٢).

اتخذت السلطات السوفيتية كذلك، إجراءات خاصة بخفض عدد المساجد فى

---

(١) سيد عبدالمجيد، الأقليات المسلمة، ص٣٧٥، ٣٧٧، ٣٧٩؛ نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٤.

(٢) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٥.

قازان، فبعد أن كانت تضم وحدها ثلاثة عشر مسجداً فى عام ١٩١٧م، أصبح لا يوجد بها سوى مسجد واحد فقط، لا يسع كافة المسلمين فى المدينة، لذلك فإن أكثر من ألفى مسلم لا يؤدون صلاة الجمعة، كذلك انخفض عدد أئمة المساجد فى تتارستان، فبعد أن بلغ عددهم ٣,٦٨٣ إماماً رسمياً فى عام ١٩١٧م، أصبح ٢٥٠ إماماً فقط، أما أداء فريضة الحج، فلا يصرح سنوياً إلا لشخصين فقط من المسلمين فى منطقة الفولجا بالسفر إلى مكة المكرمة لأداء هذه الفريضة[١]. وإذا أراد أهل تتارستان معرفة علوم الدين ودراستها فعليهم أن يذهبوا إلى أوزبكستان حيث المدارس الدينية، إذ لم تسمح السلطات السوفيتية سوى لستة أشخاص فقط من شباب قازان بالدراسة فى بخارى. ونتيجة لذلك فقد تضاءل عدد المسلمين فى تتارستان كما اتضح من خلال الدراسات والإحصاءات التى أجريت منذ سبعين عاماً[٢].

ولكن حدثت تطورات فى تتارستان فى السنوات الأخيرة تدل على عودة النشاط الإسلامى فى المنطقة، ففى عام ١٩٧٣م، أصبح عدد المساجد فى تتاريا ١٣ مسجداً جامعاً مفتوحة للعبادة، قفز هذا العدد فى عام ١٩٨٦م ليصبح عشرين مسجداً، ولأول مرة تبيح الإدارة السوفيتية طبع المصحف الشريف فى مدينة قازان. حقيقة أن المصحف الشريف طبع قبل ذلك ست مرات خلال سنوات (١٩٥٧م، ١٩٦٠م، ١٩٦٩م، ١٩٧٠م، ١٩٧٦م، ١٩٧٧م) إلا أنه لم يطبع فى قازان عينها، وهذا يعنى اعتراف من جانب الإدارة السوفيتية بالمسلمين المتدينين فى تتارستان خاصة وحوض الفولجا الأوسط عامة[٣].

---

(١) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٦.

(٢) نادر دولت، الوضع الراهن، ص٤٤٦؛ هويدا محمد فهمى، الأقليات، ص٢٤.

(٣) هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة، ص٢٥.

ونتيجة لزيادة الحرية الدينية، بنى فى عام ١٩٩٠م ثمانين حياً دينياً، وفتحت سبعة مساجد للعبادة فى مدينة قازان، وزاد ارتباط أهل تتارستان بالدين الإسلامى، وبدأوا يطالبون بزيادة عدد الأئمة، وبدأت دروس الدين فى المساجد التى أنشئت فى الأحياء الدينية التى أسست حديثاً. وفى ١١ يونيو عام ١٩٩٢م احتفل لأول مرة منذ سبعين عاماً بعيد الأضحى المبارك، ورفع الحظر عن الكتب والمنشورات الدينية، وسمح بحرية تداولها وتوزيعها. وبدأ فى السنوات الأخيرة كذلك نشاط تسع مدارس دينية أربع منها فى تتارستان، أما الخمس الأخرى فأربعة فى باشكيريا وواحدة فى موسكو. وزادت الحرية التى تمتع بها أهل تتارستان وغيرهم من مسلمى الفولجا بدليل أنه أعيد فى الآونة الأخيرة افتتاح سبعين جامعاً للعبادة، ووضع أساس ٢٥٠ جامعاً جديداً[(١)]. وشهد أهل قازان والعالم الإسلامي أجمع في يونيو من العام الحالي ٢٠٠٥م، افتتاح أكبر مسجد في قازان، بني على أنقاض مسجد المدينة القديم الذي هدمه القياصرة الروس في عام (٨٦٠هـ/١٥٥٢م)، وشرع في بناء هذا المسجد منذ عشر سنوات ويحتوي على أربع مآذن، ارتفاع الواحدة منها ٦٢ مترًا.

٣- المسلمون فى جمهورية تشوفاشيا (الجوفاش أو الشوفاش) :

وهى الجمهورية الثالثة بعد باشكيريا وتتارستان والتى تعرف باسم الجمهوريات الأشقاء. تأسست فى عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وتقع على الساحل الأيمن للفولجا الأوسط بين فرعين من فروعه هما: نهر صورا فى الغرب، ونهر سفيجيا فى الشرق. ويحدها من الشمال والشمال الغربى جمهورية مارى، ومن الجنوب الغربى جمهورية موردفيا، ومن الشرق جمهورية تتارستان. وعاصمتها

(١) هويدا محمد فهمى، الأقليات المسلمة.، ص٢٥

هى: (شبوقسارى أو جابوكسارى Chebokrasy)، وتقع على الضفة اليمنى لنهر الفولجا[1].

يتألف غالبية سكان جمهورية تشوفاشيا من الشوفاش بنسبة ٦٧,٦٨% ، ومن التتار بنسبة ٢,٩٦%، والروس ٢٦,٦٨% إلى جانب قوميات أخرى بنسبة ٢,٧%. ويرجع أصل الشوفاش إلى القبائل البلغارية، التى كانت تعيش فى الفولجا الأوسط، لذلك حدث نوع من الارتباط العرقى بينهم وبين جماعات التتار الباشكير، التى سكنت المنطقة عينها، حيث كانت تجمعهم دولة أقيمت بين مجرى نهرى كاما والفولجا فيما بين القرنين السابع والثامن الميلاديين، لذلك فإن تاريخ الجوفاش هو ذاته تاريخ الباشكير والتتار. وقد ظل هؤلاء جميعاً على إسلامهم حتى بعد الغزو المغولى لبلادهم فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وعندما ضعفت دولة المغول، وانهارت، وانقسمت إلى خانيات أو إمارات، خضع الجوفاش أو الشوفاش مثلهم مثل الباشكير والتتار لخانية واحدة وهى خانية قازان كما سبق أن أوضحنا[2].

وحينما بدأ التوسع الروسى فى حوض الفولجا، ونجح إيفان الرهيب (الرابع) فى الاستيلاء عل قازان عام ٨٦٠هـ/ ١٥٥٢م واستراخان وغيرها من البلدان الواقعة على حوض الفولجا، أصبحت منطقة الشوفاش بدورها تحت سلطان الروس، الذين استبدوا بأهلها، وانتزعوا أراضيهم الزراعية، حتى أصبح أهلها يعانون من الفقر المدقع، واضطر الكثير منهم إلى الهجرة فراراً من

---

(١) هويدا فهمى، الأقليات المسلمة، ص٤٠؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٥؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٢٩؛ سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٧؛ محمود متولى، المسلمون والحكم الشيوعى، ص٣٣٥- ٣٣٦.

(٢) انظر ما سبق، ص١٣٦-١٣٨.

الاضطهاد الروسى، ومنهم من تظاهر باعتناق المسيحية، شأنهم شأن اخوانهم من سكان المنطقة. ولكن ما أن تم إعلان الحرية الدينية فى روسيا القيصرية عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م، وأتيحت الفرصة لهم لممارسة شعائرهم الدينية، حتى عاد جميع الشوفاش ممن تنصروا عنوة إلى الإسلام مرة أخرى، وسادت بلادهم نهضة إسلامية قبل استيلاء الشيوعيين على حكم روسيا[١].

أخذ الإسلام ينتشر من جديد بين الشوفاش مثلما حدث مع اخوانهم من أهل باشكيريا وتتاريا وغيرهم من سكان الفولجا الأوسط، حتى أصبح المسلمون يمثلون الغلبة العددية بين جماعات الشوفاش، وكانوا سنة كمسلمى باشكيريا وتتارستان وعلى المذهب الحنفى كذلك، ويتبعون الإدارة الدينية لروسيا الأوربية، ومركزها مدينة (أوفا) عاصمة باشكيريا. على الرغم من أن لهم جمهورية ذات حكم ذاتى منذ عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م[٢].

ومن مظاهر حماسة الشوفاش للإسلام وانتشاره بينهم، أنه فى إحدى قراهم المسيحية، قضى قس هذه القرية سنوات كثيرة فى جمع ثلاثمائة روبل **Roubles**، كانت ضرورية لإصلاح كنيسة القرية، فى حين تحولت ثمانى أسرات شوفاشية إلى الإسلام، فجمع المسلمون ألفى روبل خلال بضعة أشهر لبناء مسجد لهم. كما خصص دعماً مادياً وعينياً لكل أسرة كانت تعتنق الإسلام، وإذا أسلمت أسرة أو عدة أسرات فى قرية من قراهم، كان الجميع يسارعون ببناء مسجد لأداء صلاتهم، ومدرسة لتعليم أطفالهم[٣]. ومما لا شك فيه أن هذا النشاط يعد علامة

---

(١) انظر ما سبق، وانظر أيضاً: سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة فى آسيا، ص٣٨٧-٣٨٨؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٣٠.

(٢) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٨؛ محمود أبوالعلا، المسلمون، ص١٣٠؛ هويدا محمد فهمى، الأقليات، ص٤٣.

(٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٣.

وصفة تتميز بها الدعوة إلى الإسلام.

ثانياً: المسلمون فى الجمهوريات الإسلامية ذات الأصل الفينى :

٤- المسلمون فى جمهورية موردوفيا (موردوف) :

الموردوف أحد العناصر التى قطنت منطقة حوض الفولجا، وأسلموا على يد دعاة البلغار والتتار، وقد ورد ذكرهم لأول مرة فى وثائق القرن السادس الميلادى تحت اسم "موردنيس Mordens". وهم قرويون أساساً، ويتكلمون لهجة خاصة بهم[١].

تأسست جمهورية موردوف أو موردوفيا فى سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م وهى بطبيعة الحال تتبع جمهورية روسيا الاتحادية وتقع فى الجنوب الغربى من جمهورية الشوفاش، ونسبة المسلمين بها تصل إلى ٥٥%، ويتبعون كغيرهم من مسلمى المنطقة الإدارة الدينية لمسلمى روسيا ومقرها (أوفا). أما باقى سكانها فهم من النصارى الروس والأوكرانيين، وعاصمتها سارانسك[٢].

٥- المسلمون فى جمهورية أودمورت Udmurt :

الأودمورت مجموعة من القبائل الفينية Finns، كان يطلق عليهم فى المخطوطات الروسية خلال القرنين الثامن والعاشر الهجريين/الرابع عشر والسادس عشر الميلاديين اسم " آر " واسم " أوتاك "، وأطلق عليهم فيما بعد اسم " فوتاك أو الفوتياك Votiaks "، وظل هذا الاسم علماً عليهم بعد ذلك[٣]. إذ كانت قبيلة

(١) انظر : أبرار كريم، من هم التتار، ص١٢٥.

(٢) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٥؛ سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٨٦؛ محمود متولى، المسلمون والحكم الشيوعى، ص٣٣٦.

(٣) أبرار كريم الله، من هم التتار، ص١٢٣- ١٢٤.

الفوتياك أهم قبائل الأودمورت.

دخل الأودمورت الإسلام بفضل جهود الباشكير والتتار، رغم القوانين الصارمة التى أصدرها قياصرة روسيا، والتى تحرم التحول إلى أى دين من الأديان عدا المسيحية الأرثوذكسية، وعملت روسيا القيصرية على فصلهم عن سائر المسلمين فى الفولجا وخاصة باشكيريا وتتاريا، كى تبقى معلوماتهم عن الإسلام ضعيفة، وبالتالى يمكن التأثير عليهم وفتنتهم عن دينهم، ولكن فشل القياصرة فى ذلك، فلما جاءت الشيوعية أفلحت فيما خطط له القياصرة باستخدام أساليب التهديد، والضغط والإرهاب، والدعاية ضد الإسلام، ولكن سرعان ما تساهل الشيوعيين قليلاً فى الحرية الدينية أثناء الحرب العالمية الثانية، بسبب الظروف التى كانت تمر بها الإمبراطورية الروسية، وحاجتها الماسة إلى حماسة المسلمين، لذلك أعلن من لم يسلم من قبل إسلامه، حتى أصبح كل الأودمورت والفينيين مسلمين، عندئذ اشتد ضيق الروس وزاد ظلمهم، وأرسلوا كتائبهم إلى بلاد الأودمورت لتستولى على أراضيهم، وتحرم أصحابها من حقهم فيها، فى محاولة منهم لوضع العراقيل أمام الزحف الإسلامى فى هذه المنطقة[1].

تمكن السوفيت من تحقيق ما كانوا يصبون إليه من تمزيق وحدة المسلمين فى منطقة الفولجا، وكان أن أنشأت جمهورية أدومورت فى عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، كواحدة من جمهوريات روسيا الاتحادية المستقلة ذاتياً، وهى تقع فى شمال جمهورية تتارستان، وتشغل السفوح الغربية من جبال الأورال، وتنبع منها بعض روافد نهر الفولجا، وهى أكثر المناطق الإسلامية امتداداً نحو الشمال فى روسيا الأوربية، وعاصمتها مدينة ايجستك أو ايجفسك وتصل نسبة المسلمين فى

(١) محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢٢، ص١٨٦.

جمهورية أودمورت إلى ٦٠% من مجموع سكانها وهم يتبعون كذلك الإدارة الدينية لمسلمى القسم الأوربى فى مدينة أوفا[١].

٦- المسلمون فى جمهورية مارى Mary :

الماريون مجموعة من القبائل الفينية كذلك ومن أهم هذه القبائل قبيلة التشيريمس Cheremiss ، ويتحدثون اللغة المارية، وهى إحدى لغات المجموعة الفينية الأوغورية[٢]. وسبق أن ذكرنا أنهم دخلوا الإسلام بفضل جهود الباشكير والتتار، رغم القوانين الصارمة التى أصدرها قياصرة روسيا، وقد لعبت المصاهرة دوراً هاماً فى دخول الشيريمس فى الإسلام، مثال ذلك أن إحدى أسرات التشيريمس فى بعض القرى تصاهرت إلى بعض الباشكير واعتنقت ديانتهم. وتعرض من أسلموا من التشيريمس لاضطهاد وتحقير وسخرية من جانب الروس لدرجة أنهم كانوا يطلقوا عليهم اسم " الكلاب المختونين " لأنهم كانوا يختنون أطفالهم، لذلك أخذوا يهجرون قراهم، ويؤسسون قرى جديدة على بعد أميال، وقد أعانهم الباشكير على ذلك بالأموال، كما ساعدوهم فى بناء المساجد لممارسة شعائر دينهم الجديد[٣].

تأثر الشيريمس بالباشكير والتتار فى عاداتهم ولغتهم وزيهم وثقافتهم الإسلامية، وسرعان ما أصبح هؤلاء الشيريمس بعد إسلامهم، على جانب كبير من الحماسة لنشر دينهم الجديد، ومن الدلائل على ذلك أن قرية (قرقول) كانت

---

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات، ص٣٨٩- ٣٩٠؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٥؛ محمود متولى، المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، ص٣٣٦.

(٢) ابرار الكريم، من هم التتار، ص١٢٣.

(٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨١- ٢٨٢؛ وانظر ما سبق ص .

فى مستهل القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى آهلة بالشيريمس المسيحيين، ولكن بعد منتصف هذا القرن بقليل، تحولت بعض الأسرات من هذه القرية إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس، وخلفه فى الدعوة للإسلام بعد وفاته أحد رجالات الباشكير من أهالى قرية أخرى. وظل الإسلام ينتشر فى هذه القرية حتى دان أهلها بالإسلام وذلك بفضل جهود هؤلاء الشيريمس وبمساعدة الباشكير والتتار. حقيقة كان من الشيريمس من يدين بالمسيحية، ومنهم من كان وثنياً، ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بحيث أصبح السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام(١).

ومر الماريون بنفس مراحل التحدى، التى مر بها جيرانهم حتى تأسست جمهوريتهم فى عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، وتقع حدودها شمالى جمهورية تتارستان، وجمهورية الشوفاش، ويمثل نهر الفولجا الحد الفاصل بينها وبين الشوفاش، ويمر فى جنوبها. وعاصمتها " يوشكاراولا " وهى مدينة كبيرة، تبلغ نسبة المسلمين بها أكثر من أى مدينة إسلامية أخرى بالمنطقة، إذ تصل إلى ٥٢% من مجموع السكان. ويتحدث سكان جمهورية مارى إلى جانب لغتهم الأصلية وهى المارية، اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، ويتحدث بها على وجه الخصوص العلماء ورجال الدين، كذلك تنتشر اللغة التركية والفارسية ببلادهم، وتصل نسبة المسلمين بها إلى حوالى ٦٠% من مجموع سكانها(٢).

---

(١) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٢.

(٢) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣١٩؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٦– ١٨٧؛ محمود متولى ، المسلمون ، ص٣٣٧.

٧- المسلمون فى جمهورية أورنبرج Orenburg " شكالوف " :

اعتنق أهل أورنبرج الإسلام عن طريق التتار والقـازاق (القرغيـز)، إذا كان إقليمهم معبراً للهجرات، فعبرته شعوب مسلمة إلى شرق أوربا ، واستقر به بعضهم، ومن ثم فقد انتشر الإسلام فى أورنبرج قبل أن يستولى القياصرة الروس عليها وعلى غيرها من بلدان الفولجا، وقد تعـرض أهلهـا المسـلمون لـنفس الظروف التى تعرض لها اخوانهم فى ظل الحكم الروسى، ولكنهم ظلوا يناضـلون حتى أنشأ لهم فى أورنبرج المجلس الروحى الإسلامى فى عام ١١٩٧هـ/١٨٨٢م، وكان تحت سلطاته القضائية الجاليات الإسلامية كافة فى المنطقة، والذى ما لبث أن نقل إلى مدينة أوفا فيما بعد[١].

وعندما بدأت الثورة الشيوعية، كانت أورنبرج أفضـل المـدن الإسـلامية بروسيا، إذ اشتهرت بطباعة الكتب الدينية الإسلامية، كذلك عقد بها المؤتمر الأول والثانى للقازاق فى شهرى إبريل ويوليو من عام ١٢٣٦هـ/١٩١٧م ودار النقاش فيهما خاصة فى المؤتمر الثانى حول الوحدة بينهم وبين التتار، وطالبوا بتكـوين هيئة دينية منفصلة عن الهيئة الدينية فى مدينة أوفـا، كمـا طـالبوا بالاتحـاد الفيدرالى كنوع من الاستقلال. وعلى الرغم من الصحوة الإسلامية التى ظهـرت بين أهالى أورنبرج إلا أن السوفيت حينما استولوا على الحكم فى روسيا، قضـوا على آمالهم فى الاستقلال، وحـاربوا الـدين الإسـلامى، وهـدموا المؤسسـات الإسلامية، ومنحوا المسلمين إدارة دينية رمزية فى مدينة أوفا فقط[٢].

---

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات المسلمة، ص٣٩٢.

(٢) سيد عبدالمجيد، الأقليات، ص٣٩٫٢.

وانطلاقاً من سياسة السوفيت التى استهدفت تفتيت الوحدة الإسلامية فى حوض الفولجا، أعلنت أورنبرج جمهورية ضمن جمهوريات روسيا الاتحادية، وتقع إلى الجنوب من باشكيريا وفى حوض نهر الأورال، وتشترك حدودها الجنوبية مع باقى جمهوريات روسيا الاتحادية، وكانت تسمى حتى عهد قريب باسمها "جمهورية أورنبرج" فقد كانت مدينة أورنبرج أهم مدن الإقليم وعاصمته كذلك، ثم تغير اسمها واسم عاصمتها ليصبح "شكالوف" لينسى اسمها التاريخى ذو الأهمية الكبيرة. وهذه الجمهورية بمثابة الحد الفاصل بين مسلمى آسيا الوسطى حيث أكبر تجمع إسلامى فى الاتحاد السوفيتى وبين مسلمى حوض الفولجا. ويتألف سكانها من الباشكير والقازاق والتتار، ويشكلون ٥٠% من السكان وهى نسبة المسلمين بها، أما الباقى منهم نصارى من الروس والأوكرانيين[١].

(١) سيد عبدالمجيد بكر، الأقليات، ص٣٩٢؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، ج٢١، ص١٨٩؛ محمود متولى، المسلمون، ص٣٣٧.

خاتمة

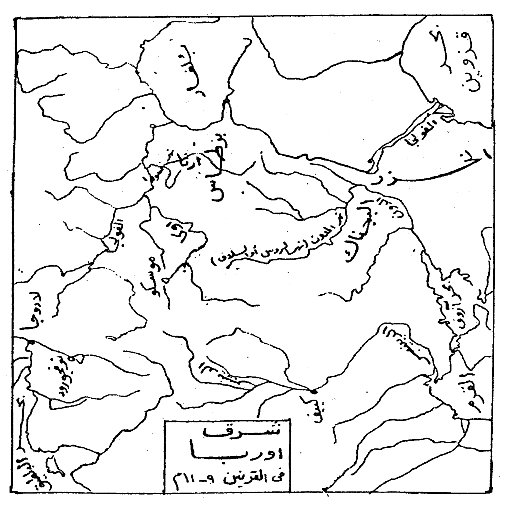
على الرغم مما يواجهه المسلمون في منطقة حوض الفولجا ـ الأورال من مشكلات إلا أن الله قدر أن ينهار الاتحاد السوفيتي أواخر عام ١٩٩١م، فجاء ذلك الانهيار نصرًا لكلمة الله، ووأدًا للإلحاد، وأملاً جديدًا للمسلمين لتجديد شبابهم، فقد تشجعت الأقليات المسلمة في المنطقة على إثر هذا الانهيار، وقامت بعقد المؤتمرات لبحث أوضاعها، وحل مشكلاتها.

وكانت البداية من مدينة قازان ـ عاصمة تتارستان ـ التي وجهت الدعوة لعقد مؤتمر من أجل هذا الغرض، حضره البشكيريون، والأودموريتيون، والماريسيون وغيرهم من الجمهوريات الاتحادية، وناقش المجتمعون مدى ما تعرضوا له من استغلال اقتصادي، ومدى ما تحملوا من إذلال في ظل السيطرة الشيوعية التي امتصت مواردهم الطبيعية لصالح موسكو[١].

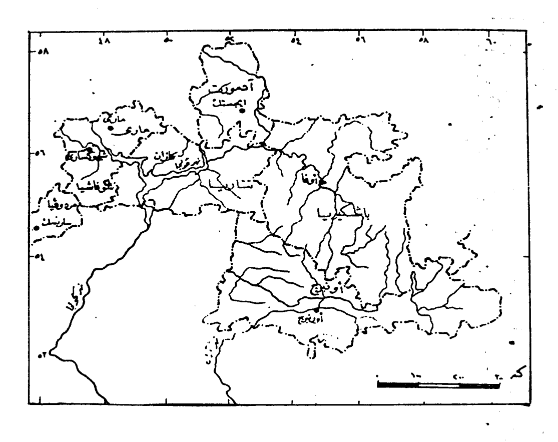
وبدأ المسلمون في منطقة حوض الفولجا بزعامة قازان ينادون بالانفصال عن روسيا الاتحادية، وتكوين اتحاد كونفدرالي من إقليمي الأورال والفولجا، يضم سبعة ملايين تتاري في ظل نظام جديد، وحكم إسلامي تحت اسم تتارستان، وعلى الرغم من أن هذا الاقتراح قوبل بالرفض، إلا أنه من المتوقع أن تقوم الأقليات المسلمة في المنطقة بالثورة على الظلم والمطالبة بالاستقلال شأنها في ذلك شأن الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز[٢].

ونسأل الله العلي القدير أن يكلل مساعيها بالنجاح، وأن يتم نوره ولو كره الكافرون.

(١) هويدا محمد فهمي، الأقليات، ص٣٠، ٣١، ٣٢.
(٢) هويدا محمد فهمي، الأقليات، ص١١٢.



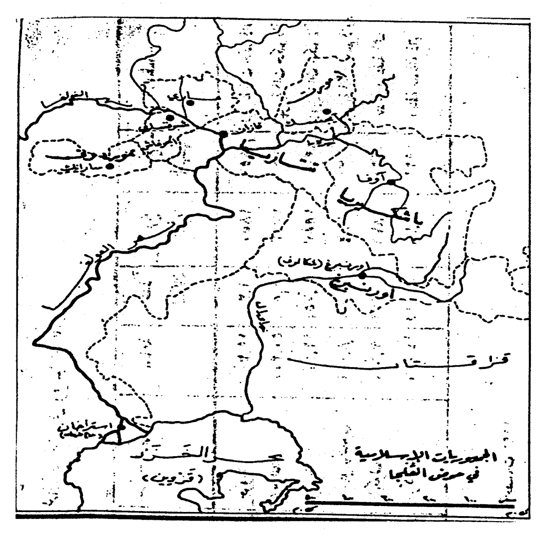
Minorskey, Hudud al-Alam, p. 435 : انظر



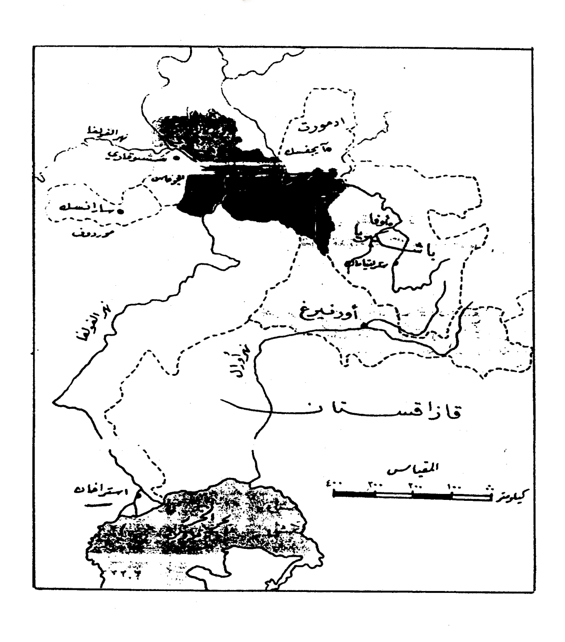
خريطة المناطق الإسلامية بحوض الفولجا

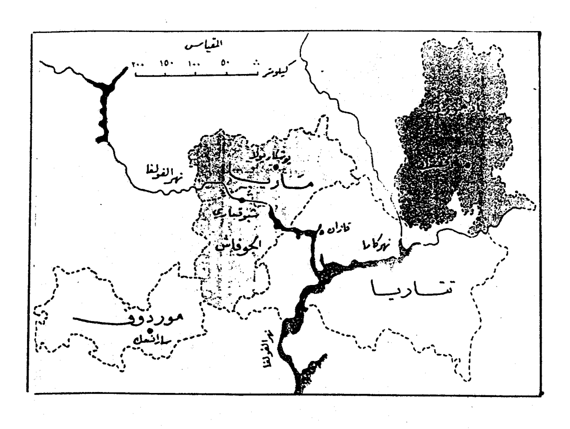
• سيد عبدالمجيد، الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا، ص٣٧٦.

المسلمون في جمهوريات حوض الفولجا :



- محمد السيد غلاب، وآخرون، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة، عرض محمد كمال جمعة؛ هدية الدارة، العدد الثاني، السنة الخامسة، محرم ١٤٠٠هـ، ديسمبر ١٩٧٩م.


ادمورت
آيجفسك
نهر الفولغا
موردوف
اوفا
أورنبرغ
نهر الفولغا
نهر الاورال
قازاقستان
المقياس
كيلومتر ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠
استراخان



- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٢١، التاريخ المعاصر المسلمون في الإمبراطورية الروسية، بيروت ١٩٩٤م.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

* **ابن الأثير (محمد بن محمد عبدالكريم ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م) :**
  - الكامل في التاريخ، ١٢ مجلد، بيروت، ١٩٧٩-١٩٨٢م.
* **ابن أيبك الدواداري (ابو بكر بن عبدالله ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م) :**
  - كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة، ١٩٦٠م.
* **ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن إبراهيم اللواتي ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :**
  - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بدون تاريخ.
* **ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م):**
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، أجزاء ٧-٩، طبعة دار الكتب، بدون تاريخ.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣، ٥، تحقيق نبيل عبدالعزيز، القاهرة، ١٩٨٦، ١٩٨٨م. أجزاء ١، ٢، ٤، ٦-١٠ تحقيق محمد محمد أمين، ١٩٨٤-٢٠٠٠م.
* **ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :**
  - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥ أجزاء، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦م.

* **ابن حوقل** (**أبو القاسم بن حوقل النصيبي ت أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي**) :
  - كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٨٧٢م.
  - كتاب صورة الأرض، بيروت، ١٩٧٩م.
* **ابن خرداذبة** (**أبو القاسم عبدالله ت حوالي ٣٠٠هـ/٩١٢م**) :
  - المسالك والممالك، بريل، ١٨٨٩م.
* **ابن خلدون** (**عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م**) :
  - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٨٣م.
* **ابن رسته** (**أبو علي أحمد بن عمر ت بين عامي ٣١٠و٣٣٧هـ / ٩٢٢و٩٤٨م**) :
  - كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن، ١٨٩١م.
* **ابن الساعي** (**علي بن أنجب الشهير بابن الساعي ت ٥٩٣-٦٧٤هـ**):
  - تاريخ الخلفاء العباسيين، قدم له وأعد فهارسه عبدالرحيم يوسف الجمل، القاهرة، ١٩٩٣م.
* **ابن سعيد** (**أبو الحسن علي بن موسى ت٦٤٠هـ/١٢٤٣م**) :
  - كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠م.
* **ابن عبدالظاهر** (**محي الدين بن عبدالظاهر ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م**) :
  - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
  - تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

* **ابن العبري (غريغوريوس أبو الفرج بن هارون ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م):**

- تاريخ الأزمنة، ترجمة إسحاق أرملة، بيروت، ١٩٨٦م.

* **ابن عربشاه :**

- عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، بيروت، ١٩٨١م.

* **ابن الفرات (نصر الدين محمد بن عبدالرحيم ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م):**

- تاريخ ابن الفرات، المجلدان ٧، ٨، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين، بيروت، ١٩٣٩-١٩٤٢م.

* **ابن فضلان (أبو العباس بن راشد بن حماد) :**

- رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م، حققها وعلق لها سامي الدهان، بيروت، ١٩٨٧م.

* **ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) :**

- البداية والنهاية، المجلد السابع، تحقيق محمد النجار، القاهرة، ١٩٩٢م.

* **ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م أو ٨٦١هـ/١٤٥٧م) :**

- خريدة العجايب وفريدة الغرايب، مصر ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م.

* **ابن الوردي زين الدين عمر ت٧٥٠هـ/١٣٤٩م) :**

- تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، جزءان، مصر، ١٢٨٥هـ.

- **أبو حامد الأندلسي الغرناطي** (**محمد عبدالرحيم ت٥٦٠هـ/١١٦٤م**) :

  – كتاب تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، نشره جابريل فيران، باريس، ١٩٢٥م.

- **أبو طالب الدمشقي** (**شمس الدين أبو عبدالله ت٧٢٧هـ/١٣٢٦م**) :

  – نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليبزج، ١٩٢٣م.

- **أبو الفدا** (**عماد الدين إسماعيل بن محمد ت٧٣٢هـ/١٣٣١م**):

  – تقويم البلدان، صححه رينود وماك كوكين ويسلان، باريس، ١٨٤٠م.

  – المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء، جزءان، بيروت، بدون تاريخ.

- **الإدريسي** (**أبو عبدالله محمد بن محمد ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م**) :

  – نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، روما، ١٩٧٠م.

- **الأصطخري** (**أبو إسحاق إبراهيم بن محمد ت ٣٤٠هـ/٩٥١م**) :

  – كتاب مسالك الممالك، تحقيق محمد جابر عبدالله الحيني، القاهرة، ١٩٦١م.

- **البلاذري** (**أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م**) :

  – فتوح البلدان، نشره ووضح ملاحقه وفهارسه، صلاح الدين المنجد، جزءان، القاهرة، ١٩٥٦-١٩٥٧م.

- **بيبرس الدوادار** (**ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م**) :

  – زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق زبيدة عطا، القاهرة، بدون تاريخ.

- التحفة الملوكية في الدولة التركية، نشر عبدالحميد حمدان، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٨٧م.

- **البيهقي** (**المعروف بابن فندق ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م**) :

- تاريخ بيهق، تصحيح وتعليقات أحمد بهينار.

- **حاجي خليفة** :

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الجزء الثاني، بدون تاريخ.

- **الحميري** (**أبو عبدالله محمد بن محمد ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م**) :

- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥.

- **الشجاعي** (**شمس الدين الشجاعي**):

- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، فيسبادن ١٩٧٨م.

- **الصابيء** (**أبو الحسن هلال بن عبدالمحسن ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م**) :

- رسوم دار الخلافة، تحقيق ونشر وتعليق ميخائيل عواد، بغداد ١٩٦٤م.

- **الطبري** (**أبو جعفر محمد بن جرير ت٣١٥هـ/٩٢٢م**) :

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧٧م.

- **العيني** (**بدر الدين أبو محمد محمود ت٨٥٥هـ/١٤٥١م**) :

- عقد الجمان في تواريخ أهل الزمان، أربعة أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٧م-١٩٩٢م.

* **العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى٧٤٩هـ/١٣٤٩م)** :

- التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، ١٩٨٨م.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الثالث، مخطوط مصور، أصدره فؤاد سزكين، ألمانيا الاتحادية، ١٩٨٨م.

* **القزويني (زكريا بن محمد ت٦٨٢هـ/١٢٨٣م)** :

- كتاب آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، بدون تاريخ.

* **القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت٨٢١هـ/١٤١٨م)** :

- صبح الأعشى في صناعة الانشا، ١٤ جزء، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩١٤-١٩٢٠م.

* **الكرديزي (أبو سعيد عبدالحي بن الضحاك ت ٤٤٢-٤٤٣هـ/١٠٥٠-١٠٥١م)** :

- زين الأخبار، جزءان، ترجمته عن الفارسية عفاف السيد زيدان، القاهرة، ١٩٨٢م.

* **المروزي (شرف الزمان طاهر)** :

- أبواب عن الصين والترك والهند من كتاب طبائع الحيوان، نشره مينورسكي بالعربية مع ترجمة وتعليق بالإنجليزية، لندن، ١٩٤٢م.

* **المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)** :

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، ١٩٨٢م.

* **مسكويه** (أبو علي أحمد بن محمد ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) :
– كتاب تجارب الأمم، الجزء الثاني (٣٢٩-٣٦٩هـ)، مصر، ١٩١٥م.
* **مفضل بن أبي الفضائل** :
– النهج السديد والدر الفريد " تاريخ سلاطين المماليك " نص بالعربية مع ترجمة بالفرنسية، ثلاثة أجزاء نشره بلوشيه Blochet في Patrologia Orientalis, T. 12, 14, 20, Paris 1919–1928
* **المقدسي** (شمس الدين أبو عبدالله محمد ت٣٨٨هـ/٩٩٨م) المعروف بالبشاري :
– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وفهارسه محمد مخردم، بيروت، ١٩٨٧م.
* **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) :
– السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ٢، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٣، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧١م.
* **النويري** (شهاب الدين أحمد عبدالوهاب ت٧٣٣هـ/١٣٣٢م) :
– نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٧، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٨٥م، ج٣١ تحقيق السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٩١م.
* **الهمذاني** (رشيد الدين فضل الله) :
– جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول والثاني، نقله إلى العربية محمد صادق نشأت، محمد موسى هنداوي، فؤاد عبدالمعطي الصياد، القاهرة، ١٩٦٠م.

* **ياقوت الحموي** (ابن عبدالله الحموي الرومي ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م):
  - معجم البلدان، ٨ مجلدات، بيروت، بدون تاريخ.
* **اليعقوبي** (أحمد بن يعقوب ت٢٨٤-٨٩٧م) :
  - كتاب البلدان، ليدن ــ بريل ١٩٦٧م.

ثانياً : المراجع العربية والمعربة :

* **أبرار كريم** : من هم التتار ؟ ترجمة رشيدة رحيم، القاهرة، ١٩٩٤م.
* **أحمد فؤاد سيد** : الإسلام والثقافة، القاهرة، بدون تاريخ.
* **أحمد محمود حسن عامر** :
  - " تاريخ بلغار الفولجا المسلمين في شرق أوربا في العصور الوسطى"، بحث منشور في مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا، ٢٠٠٠م.
  - " إمارة قازان والروس (٨٤٢-٩٥٩هـ/١٤٣٨-١٥٥٢م) " بحث منشور في مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا، يوليو ٢٠٠٢م.
* **أدم متز** : الحضارة الإسلامية، ج٢، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، طبعة ثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
* **أرنولد** : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين وإسماعيل البحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
* **اسمت غنيم** : الآفار، الإسكندرية، ١٩٩١م.
* **أمين واصف** : الفهرست، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، مصر،

١٩١٦م.

* **أنس خالدوف** : الإسلام على نهر أتل أو الفولجا، بدون تاريخ.
* **بارتولد** : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
* **بهيرة محمد غلاب** : " مغول القبيلة الذهبية في بلاد القبجاق "، دكتوراه غير منشورة، آداب طنطا، ٢٠٠٠م.
* **جمال فوزي محمد** :
  - المسلمون في القوقاز والبلقان زمن العثمانيين، القاهرة، بدون تاريخ.
  - " دولة مغول القبيلة الذهبية في عهد أوزبك خان وجهودها في نشر الإسلام " بحث منشور في ندوة التاريخ الإسلامي، كلية دار العلوم، القاهرة، العدد ١٥ لسنة ٢٠٠١م.
* **حسن أحمد محمود** : الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.
* **حسين مؤنس** : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، القاهرة، ١٩٨٦م.
* **حسين على الداقوقي** : " دولة البلغار المسلمين في حوض الفولجا "، بحث بمجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد ٢١ لسنة ١٩٨٢م.
* **حسنين محمد ربيع** : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م.
* **حياة ناصر الحجي** : العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت.

* **دنلوب** : تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٠م.
* **رأفت الشيخ** : المسلمون في العالم (تاريخيًا وجغرافيًا)، القاهرة، ١٩٩٨م.
* **رجب عبدالحليم** : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة، ١٩٨٦م.
* **الرمزي** : تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، أورنبورغ ١٩٠٨م.
* **زكي محمد حسن** : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٤٥م.
* **السيد الباز العريني** : المغول، بيروت ١٩٨٦م.
* **سيد عبدالمجيد** : الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا، سلسلة الإصدارات الخاصة، هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية.
* **سيدة إسماعيل الكاشف** : مصر في عهد الأخشيديين، القاهرة ١٩٧٠م.
* **شاخت وبوزورث** : تراث الإسلام، القسم الأول، ترجمة محمد زهير السمهوري، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.
* **شبولر** (**بارتولد**) : العالم الإسلام في العصر المغولي، ترجمة خالد أسعد عيسى، دمشق، ١٩٨٢م.
* **طارق منصور** : الروس والمجتمع الدولي (٩٤٥-١٠٥٤م)، القاهرة، ٢٠٠١م.
* **عادل إسماعيل هلال** : العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٧م.

* **عبدالوهاب عزام** : " البلغار المسلمون "، مجلة الثقافة، العددان ٢٦١ لسنة ١٩٤٣م، و٢٦٢ لسنة ١٩٤٤م.
* **علي حسون** : العثمانيون والروس، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، ١٩٨٢م.
* **فشر هـ. ا. ل** : تاريخ أوربا العصور الوسطى، الجزء الثاني، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٦٦م.
* **فؤاد عبدالمعطي الصياد** : المغول في التاريخ، القاهرة، ١٩٧٥م.
* **لوبون (جوستاف)** : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، بدون تاريخ.
* **ليلى عبدالوجواد إسماعيل** :
  - تاريخ الروس من خلال المصادر العربية، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٩٠م.
  - " المسلمون في بلاد المجر في العصور الوسطى " بحث منشور في مجلة المؤرخ المصري، العدد السابع، يوليو ١٩٩١م، يصدرها قسم التاريخ بآداب القاهرة.
* **محمد عبدالشافي** : " مملكة الخزر وعلاقتها بالبيزنطيين والمسلمين في القرنين السابع والثامن الميلاديين "، ماجستير غير منشورة، آداب أسيوط، ١٩٩١م.
* **محمد السيد غلاب وآخرون** : البلدان الإسلامية والأقليات في العالم المعاصر، بدون تاريخ.
* **محمود أبو العلا** : المسلمون في الاتحاد السوفيتي سابقًا، القاهرة، ١٩٩٣م.
* **محمود شاكر** : التاريخ الإسلامي، ج٢١، المسلمون في الإمبراطورية

الروسية، بيروت، ١٩٩٤م.

* **محمود متولي** : " المسلمون والحكم الشيوعي السوفيتي "، بحث منشور في أعمال مؤتمر المسلمين في آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، ١٩٩٨م.

* **مصطفى كسبه** :

  - المسلمون في آسيا الوسطى والقوقاز، جامعة الأزهر، بدون تاريخ.
  - الشيشان بين المحنة وواجب المسلمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
  - المسلمون في أوربا (التاريخ والأقليات)، القاهرة، ١٤١٧هـ.

* **موريس لومبار** : الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المغرب ١٩٩٠م.

* **نادر دولت** : " الوضع الراهن للمسلمين السوفيت كما يمثلهم التتار في إقليم قازان "، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي السادس، الندوة العالمية للشباب الإسلامي عن الأقليات المسلمة في العالم، القاهرة، ١٩٨٦م.

* **هانئ عبدالهادي البشير** :

  - " الدراهم الإسلامية في بلاد الروس "، بحث منشور في أعمال المؤتمر الدولي للحوار بين الحضارات " روسيا والعالم العربي والإسلامي "، جامعة حلوان، إبريل ٢٠٠٢م.
  - بيزنطة وبلغاريا ٦٨١-١٠١٨م، القاهرة، ٢٠٠٣م.

* **هايد** : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، أربعة أجزاء، القاهرة، ١٩٨٥م.

* **هسي** : العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبدالحميد، القاهرة، ١٩٩٧م.

* **هويدا محمد فهمي** : الأقليات المسلمة والصراعات العرقية في كومنولث الدول المستقلة، القاهرة، ٢٠٠٠م.
* **وسام عبدالعزيز فرج** : دراسات في تاريخ وحضارة الدولة البيزنطية، إسكندرية، ١٩٨٢م.

ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

* **Besevliev, " Deux Corrections au Breviarium de Patriarche de Nicephore ", dans Revue des Etudes Byzantines, Paris, 1970.**
* **Canard, " La Relation du Voyage d'Ibn Fadlan chey les Bulgares de La Volga, dans Annales de L'Institut d'Edudes Orientales T.X, 1958.**
* **Charanis " Ecthnic Changes in the Byzantin Empire in Seventh Century " in Dumbarton Oaks Papers, vol. 13, 1959.**
* **Chronique de Jean, Évêque de Nikiou, trans, par Zotenberg, Paris, 1883.**
* **Dvornik, Les Slaves, Byzance et Rome au IX siécle, Paris, 1926.**
* **Gerard, C. Les Bulgares de Volga et les Slaves du Danube, Paris, 1980.**
* **Gregoras, Historiae Byzantinae, in C.S.H.B., Bonnae, 1829.**
* **Grousset, L'Empire des Steppes, Paris, 1948.**
* **Istvan Fodor, " Archaeological Traces of The Volga Bulgars in Hungary of The Arpad Period "**

In Acta Orientalia Hungariae, 1979.

- Lāszlō Rāsony, Tarihte Turklük, Ankara, 1971.
- Lemerle, " Invasions et Migrations dans les Balkans ", dans Revue Historique, 1954.
- Miracula St Demetrii, Liber II in Patrologia Graecae, T. 161, Paris, 1864.
- Nicephorus, Breviarium Rerum Post Mauricium Gestarum, In Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (C.H.S.B.) Bonnae, 1837.
- Noonan, T., " Monetary Circulation in Early Medieval Rus' : A Study of Volga Bulgar Dirham Finds. In Russian History, vol. 3, 1980. pp.294–311.
- Obolensky, Les Byzantines Commonwealth Eastern Europe (500–1453), London, 1971.
- Ostrogorsky, " The Byzantine Empire in The world of The Seven Century ", in Dumbarton Oaks Papers, 1959.
- Pachymeres, G. De Michael et Andronico Palaeologis Libri, in Corpus. Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonnae, 1835.
- Runciman, A History of The First Bulgarians Empire, London, 1930.
- Vasiliev, L'Empire Byzantine, T.I, Paris, 1932.